زين الدين أبوالخير النحاس

(ت: ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م)

بقلم الدكتور

رحاب السيد أحمد محمد جناحه

مدرس التاريخ الإسلامي - جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإنسانية

فرع القاهرة

وصف العصر المملوكي بأنه عصر الازدهار الحضاري[١]، إذ بلغ النظام الإداري به أوج ازدهاره[٢]، حتى قيل أن: "دولة المماليك شهدت نظاماً إدارياً بالغ الدقة"[٣]، لكن في الوقت نفسه زاد الفساد والاضطراب وعمت الرشوة والبراطيل حتى قال المقريزي: "... تجاهر الناس بالبراطيل، فلا يكاد يلي أحد وظيفة ولا عمل إلا بمال"[٤].

وقال الشاعر:

بعثت في حاجتي رسولاً * يكني أبا درهم فتمت**

ولو سواه بعثت فيها * لم تحظ نفسي بما تمنت**[٥]

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣٤٨، البيومي إسماعيل: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٩٨، ص١١، ١٢: ٢٥

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦، ص٣٧٠، ٣٧٣، عبدالمنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩، ص٥٠، محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٥٥٩.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٧٠.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج٥، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٢٣١، للمزيد انظر: أحمد عبدالرازق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص٢٥: ٣٩. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص٥٦: ٥٨، حياة ناصر حجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك البحرية، الكويت، ط١، ١٩٩٧، ص٦٥: ٦٨.

(٥) ابن تغري بردي (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف، ت٨٧٤هـ): حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، القاهرة، ط١، ١٩٩٠، ج٢، ص٣٧٠.

وقال آخر:

قيـــل برطـــل علـــى القضـــا * تـــــرغم الحســـــد العـــــدى**[١]

وبالتالي فقد وصل للمناصب على اختلافها[٢] مَنْ ليس لديهم من الخبرة والكفاءة ما يؤهلهم لشيء، وهو الأمر الذي بدا وكأنه مألوفًا آنذاك، وعنه قال المقريزي: "....فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل، وفسد بذلك كثير من الأحوال"[٣].

وقال الشاعر:

خلـــت الرقـــاع مـــن الرخـــاخ * ففرزنـــت فيهـــا البيـــادق**
وتصـــاهلت عُـــرج الحميـــر * فقلـت: مـن عـدم السـوابق**[٤].

ومن ثم فقد تحولت الوظائف إلى ظاهرة للجشع والظلم والفساد الشديد[٥].

---

(١) ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي، ت٨٥٢هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، السفر ج٣، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٧٤.

(٢) يستوي في ذلك العسكرية وغيرها حتى الدينية. للمزيد انظر، أحمد عبدالرازق: البذل والبرطلة، الفصلين الثالث والرابع.

(٣) السلوك، ج٥، ص٢٣١، للمزيد انظر، محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص٥٥٩: ٥٦٠، سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٥٧: ٥٨، حياة ناصر: السلطة والمجتمع، ص٦٨: ٦٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٥، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٣٥٣: ٣٥٤.

(٥) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مج١، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢، ص٩٣: ٩٤، محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص٤٥٥، مفيد الزيدي: العصر المملوكي، الأردن، ٢٠٠٩، ص٣٠٠: ٣٠١، ليلى عبدالجواد إسماعيل: مظاهر الحضارة في العصر المملوكي، بحث ضمن المرجع في تاريخ مصر في العصور الوسطى، تقديم ومراجعة: زبيدة عطا، حسنين محمد ربيع، المجلس الأعلى للثقافة، لجنة التاريخ، ٢٠١٣، ص٦١٢.

لكن ما يلفت النظر أنه في أواخر العصر المملوكي انتشرت ظاهرة أكثر ضررًا وأوسع فسادًا، تقوم على طمع السلاطين في أموال الرعية[١]، ويكون ذلك بالاعتماد على أشخاص يساعدون السلطة في التعرف على من عندهم أموال، وفي المقابل ينال أمثال هؤلاء من المكانة والنفوذ ما لم ينلهُ غيرهم، في حين أنهم في الأصل غير جديرين بهذه المكانة أو مستحقين لها[٢].

وقد ظهر في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ- ١٤٣٨- ١٤٥٣م)[٣] أحد هؤلاء الطموحين[١]، والذي استطاع أن يصل إلى

(١) المتتبع لتاريخ دولة المماليك الجراكسة يلاحظ بوضوح مدى أهمية البعد الاقتصادي، وحاجة السلاطين للمال باستمرار، الأمر الذي زاد بشكل كبير في أواخر العصر المملوكي، وكان لذلك أسباب عدة عنها. انظر: أحمد عبدالرازق: البذل والبرطلة، ص١٣٢: ١٣٩، وليم موليور: دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين، سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص١٨٢: ١٨٣، محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص٤٥٥: ٤٨٠، ٥٥٦: ٥٧٠، مفيد الزيدي: العصر المملوكي، الأردن، ٢٠٠٩، ص٢٩٨: ٣١٠.

(٢) وقد ظهر في تاريخ هذه الفترة أكثر من شخص في عهد الأشرف برسباي. عنه ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص١٤٢: ١٤٥. وهناك مثال آخر ذكره المقريزي: السلوك، ق٣، ج٤، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتب، ١٩٧٣، ص١١٠٠.

(٣) الملك الظاهر سيف الدين أبوسعيد جقمق العلائي الظاهري الرابع والثلاثون من ملوك الترك والعاشر من ملوك الجراكسة، سبي صغيرًا وجلب إلى القاهرة، ورقي في الخدم حتى أصبح حاجب الحجاب في دولة برسباي، وبويع بالسلطنة بعد خلعه للعزيز ابن برسباي، في ربيع الأول سنة ٨٤٢هـ، واستمر على سرير الملك إلى أن خلع نفسه بابنه، ثم توفي بعدها بأيام عن إحدى وثمانين سنة، وصف بأنه كان ديناً خيرًا قليل الأذى، عنه انظر: المقريزي: السلوك، ق٣، ج٤، ص١٠٨٦: ١١٠٠، البقاعي (إبراهيم بن عمر البقاعي، ت٨٨٥هـ): أظهار العصر لأسرار أهل العصر، ثلاث مجلدات، تحقيق: محمد سالم بن شديد العوفي، ط١، ١٩٩٣، مج١، =

أعلى مراتب الدولة، وأن يدير دفة الأمور بها. وهو أبوالخير النحاس، الذي علا نجمه واستطاع أن يصل إلى أعلى الدرجات حتى أصبح ملكاً معظمًا[٢] وهو في الأصل نحاساً وضيعًا[٣]، فقيرًا مملقًا متحيلاً على الرزق، دائرًا على قدميه في النزه والأزقات، ثم وافته السعادة على حين غفلة[٤]. فسيطر على السلطان الظاهر جقمق ودولته سيطرة كاملة، حتى وصف بعزيز مصر

=

ص٣٠٢: ٣٠٤، السخاوي (شمس الدين أبوالخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي ت ٩٠٢): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٧١: ٧٤، رقم (٢٨٧)، ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبدالباسط ابن خليل، ت٩٢٠هـ): نيل الأمل في ذيل الدول، ق٦، ج٢، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢، ص٣٨٢، رقم (٢٣١٨)، ابن العماد (شهاب الدين أبوالفلاح عبدالحي أحمد بن محمد الحنفي ت ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج٩، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، محمد الأرناؤوط، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٤٢٥: ٤٢٦، الشوكاني (محمد بن علي ت ١٢٥٠): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، القاهرة، ص١٨٤: ١٨٦، رقم (١١٨).

(١) عن أمثلة لهؤلاء انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٣٥، ٢٨٢: ٢٨٣، ج١٦، ص١٦٧، ١٧٠: ١٧١، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ٣١٨: ٣١٩، رقم ١١٩٦، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد، عصام فارس الخرستاني، بيروت، ط١، ١٩٩٥، مج٢، ص٦٧٣، رقم (١٥٤٧)، ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٣٠هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٦٠، ج٢، ص٣٣٧، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٩٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٥١.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٧، ١٣٠.

آنذاك[١]، وذلك بعد أن كان في الحضيض من الفقر والذل والإفلاس[٢]، بل وصف بأنه كان من الأوباش[٣]، وأنه أقل خلق الله[٤]، وهو "ابن النَّحَّاس"[٥].

التعريف بـ "ابن النَّحَّاس":

يُلقب بـ "زين الدين" ويكنى بـ "أبي الخير"[٦]، واختلف الكُتَّاب في اسمه، فمنهم من عرفه بـ "محمد بن محمد بن أحمد"[٧]. وذُكر أيضاً "محمد بن أحمد بن محمد"[٨]، وذكره صاحب المنهل الصافي بـ "محمد بن محمد محمد المعلم القاضي زين الدين أبوالخير بن المعلم شهاب الدين بن المعلم

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٦٦.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٠.
(٣) ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: محمد فهيم شلتوت، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٨٢٨، رقم (٢٧٨٥).
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٧٩ حتى قيل أنه كان "لا يجد ما يأكل... وكان يمشي وراء حماره حافياً، وربما ذهب إلى بلبيس كذلك ماشياً حافياً" البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٩.
(٥) للمزيد عمن لقب بأبي الخير النحاس، وهو غير النحاس موضوع البحث، انظر. السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص١٠٨: ١٠٩.
(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج١٢، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣٢٢، رقم (٢٧٩٧). السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، مج٢، ص٧٣٤، رقم (١٦٨٩)، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠، رقم (٢٤٨٢).
(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٠، ج١٦، ص١٨١، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠.
(٨) ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج٢، ص٨٢٨، السخاوي: الذيل التام على دول الإسلام، مج٢، ص١٤٨، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، مج٢، ص١٣٤، رقم (١٦٨٩).

شمس الدين المصري الشافعي، عُرف والده بابن الفقيه"[١]. وزاد البعض "ابن عبدالله" و"ابن خلف القاهري" ويعرف بـ "ابن النحاس"[٢].

أما عن مولده فيذكر أنه ولد في شهر رجب سنة ٨١٥هـ[٣]. ونشأ بالقاهرة تحت كنف والده، وحفظ القرآن الكريم، وكتب الخط، وتخلق بأخلاق الفقهاء، مع قراءة القرآن بالنغم، وبعض اشتغال وحضور عند بعض العلماء[٤] لكنه مع ذلك "لم يتميز ولا كاد بل استمر على عاميته.... وهو مع ذلك يتردد للمزارات... ويتلو مع القراء"[٥].

تعلم أبوالخير صناعة النحاس من والده وجده بسوق الشوايين[٦]،

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢، رقم (٢٧٩٧) ومن الواضح أن ابن تغري بردي نفسه قد اختلفت مؤلفاته عند ذكره للاسم، مع العلم أنه كان معاصرًا له، وكتب أحداث تلك الفترة يومًا بيوم في مؤلفه "حوادث الدهور".

(٢) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٧، ص٦٣، رقم (١٢٧)، الذيل التام، مج٢، ص١٤٨، وجيز الكلام، مج٢، ص٧٣٤، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣، رقم (١٢٧). في حين لم يحددها ابن تغري بردي إذ نجدها ساقطة أصلاً في كتابه المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢، بينما يذكر في الدليل الشافي أنها قبل٨٢٠هـ تخمينًا"، ج٢، ص٨٢٨.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٠: ١٣١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣، **وسوق الشوايين** أول سوق وضع بالقاهرة، وكان يعرف بسوق السراجين وهو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين، ولازال يعرف بسوق السراجين إلى أن سكنه عدة من بياعي الشواء في حدود السبعمائة، فزالت عنه هذه النسبة وعرف بالشوايين، وآنذاك كان سكن المتعيشين وبه عدة حوانيت ما بين صيارفه وبياعي طرف ومتعيشين في المآكل وغيرها. عنه انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ "الخطط المقريزية"، ج٣، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت، ص١٦٢: ١٦٣.

ومهر في صناعته فاتخذ له حانوتًا بالقرب من دكان والده، وأخذ في الحانوت وأعطى، ومن ثم عُرف بالنَّحَّاس شهرة ومكسبًا[١] كما تاجر في أصناف النحاس، وصار بينه وبين الناس معاملات ومشاركات، وساءت سيرته مع من عامله، وغلب عليه معاشرة أرباب الخلاعات[٢].

وكان أبوالخير النحاس: "رجلاً طويلاً، أسمر جسيمًا عاميًا، كانت صفته مشبهة لصناعته وأهلها في الكثافة"[٣] ووصف أيضاً بأنه: "كان بشوش الوجه، طلق المُحيا، مع عصبية لمن قصده، حسن السياسة والمعرفة، له دهاء مع حدة مزاج وبعض الطيش وخفة ومجازفة"[٤].

اتصاله بالسلطان الظاهر جقمق:

من خلال عمل النحاس في حانوته ومعاملاته مع الناس كان أحيانًا يتحمل بعض الديون[٥]، وكان من بين من عاملهم شخص يسمى الشيخ أبوالعباس الوفائي[٦]، حتى أصبح له قدر كبير من الديون عند النحاس،

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨٢.
(٤) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٧٠.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢.
(٦) أبوالعباس الوفائي: محمد بن إسماعيل بن محمد الوفائي، نسبه إلى قرية بصعيد مصر ولد سنة ٧٨٨هـ، ممن درس وأفتى وناظر وتوفي سنة ٨٤٩هـ عنه انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص٢٤٢، البقاعي/ إظهار العصر، مج٣، ص٦٢: ٦٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٤٠، رقم (٣٤١)، وجيز الكلام، مج٢، ص٦٠٢، رقم (١٣٨٢).

وكانت الأمور تسير بينهما على ما يرام إلى أن اختلفا[١]، وهنالك أخذ أبوالعباس في مطالبة النحاس بالديون والإلحاح في ذلك وهو يماطل، فاضطر الوفائي إلى رفع شكواه إلى مجالس الحكام[٢]، معتمدًا في ذلك على صلته بجوهر القنقبائي[٣]، ومن ثم سمعت كلمته، وزاد في التجرأ على أبي الخير النحاس والمبالغة في الحط عليه حتى سُجن، ووصل الأمر إلى ضربه أكثر من مرة، ربما علقتين في اليوم الواحد، ودام الحال على ذلك عدة أشهر بل ربما سنين[٤] كل ذلك والوفائي لا يرق لفقر النحاس وعوزه[٥].

لكن تبدل الحال بعد وفاة جوهر القنقبائي، إذ أعمل النحاس فكره واستغل دهاءه، فلجأ إلى السلطان وشكى له مما ناله من عسف رجال دولته

---

(١) ويذكر أن سبب الخلاف بينهما أن أبا الخير النحاس كان يخدم الوفائي وكان يقبض له أموال من الناس، فاختلف معه في بعض ما قبضه له. عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٢.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣، وجوهر القنقبائي: هو جوهر الطواشي الحبشي ولي الخازندارية في دولة الأشرف برسباي، والزمامية في دولة الظاهر جقمق وفي مبدئه كان قد تنقلت به الحال إلى أن اتصل بالسلطان الأشرف برسباي وتقرب منه بتحصيل الأموال بوجوه لا تحل. وكان الملك يقربه سرًا ويتبرأ منه علنًا، فارتفع قدره واستمر كذلك حتى وفاة الأشرف، فخاف من الظاهر جقمق لأنه كان ينكر عليه ذلك. ولكن بوساطة زوجة السلطان تم العفو عنه فظل على حرمته، إلى أن مرض وتوفي سنة ٨٤٤هـ. عنه انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص١٤٢: ١٤٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٨٥: ٤٨٦، الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٤، رقم (٨٧٠)، السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٨٢، رقم ٣٢٧.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٦، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٣:٣٢٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١.

مجاملةً لجوهر. ولمس النحاس رغبة السلطان جقمق في الإحاطة بحواصل جوهر ومخبآته، ومن هنا نجح في الوصول إلي السلطان وتمكن من مرافعة الوفائي(١)، والدعوى عليه بأن ما عنده من أموال إنما هو من جملة ذخائر القنقبائي(٢).

ومن خلال صلة النحاس بالوفائي استطاع إثبات ذلك، بل وحدد أشياء بعينها، هي بالفعل كانت في ملك جوهر، وطلب من السلطان محاققة ذلك، فلما سمع كلامه مال إليه، وقال له "وكلتك في طلب الحق من أبي العباس"(٣). فنزل النحاس من عند السلطان وهو مدعِي بعد أن كان مدعَى عليه؛ وساعدته الظروف بأن ظهر عند الوفائي بعض موجود جوهر، فحسن ذلك ببال السلطان، ونبل أبو الخير عنده(٤)، ووقع عنده موقعًا حسنًا فأعطاه خمسين دينارًا وبعض الصوف ونحو ذلك، بل وطلب منه ملازمة خدمته(٥)، ووكله في جميع أموره(٦)، وعن سبب إعجاب السلطان بالنحاس يقول البقاعي: "فوجده عارفاً بالمرافعة وتفتيح أبواب الشر فقربه، فكان سبب رفعته عنده"(٧).

فتحسن حال النحاس وقد عرف "مزاج السلطان" وأغراضه في البحث

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٣.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص١٣١.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.
(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٢، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٣.
(٧) إظهار العصر، مج٣، ص٦٣.

عما يعود بالنفع عليه[١]، فكان يتقرب إليه بهذه الأمور[٢]، فعظم عنده وسمح له بالطلوع إلى القلعة[٣] وزادت شهرته، حتى قيل: "...كاد يطير من العظمة وتحشر في السلطان غاية التحشر، وترفع بنفسه"[٤]. ومن شدة ارتباطه بالسلطان وانفراده به أنه كان يطلع إلى القلعة كل يوم، ولا يجتمع به إلا في خلوة بالقبة داخل قلعة الدهيشة[٥]؛ حتى قيل أن السلطان قصد أن يزوجه إحدى بناته[٦]. ولم لا؟! وهو يقوم "بما لم ينهض به غيره من جلب

(١) وقد عرف عن الظاهر جقمق محبته الشديدة لجمع الأموال من أي وجه كان، وتبذيرها في أي سبيل اتفق. عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٢.

(٢) وعن رغبة الملوك في جمع الأموال فقد أكد العلامة ابن خلدون أن الترف إذا عم الدولة زادت حاجة الملوك للمال لتحقيق ذلك لهم ولرجال دولتهم وجندهم الذين تكثر مطالباتهم، مما يضطر الملوك لفرض الضرائب، والطمع فيما في أيدي الرعية والموظفين، فيهونوا في أعين الجميع، ويجسر عليهم جندهم وولاتهم. ويكون ذلك مؤذنًا بنهاية الدولة. انظر. تاريخ ابن خلدون المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ج١، مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن والحواشي: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص٢٧٦: ٢٧٨.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٣: ٣٢٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٤) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٠٥.

(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٧، والدّهَيْشة: وهي قلعة رائعة تُعد من العجائب وعمارتها حسنة. عمرها الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٥هـ، لتضاهي بل تفوق قلعة صاحب حماة. وبالفعل استقدم الأحجار والرخام من الشام، ورصد لها أمهر العمال والمهندسين، وتأنق في فرشها، فكانت في غاية الروعة. عنها انظر المقريزي: الخطط، ج٣، ٣٤٤، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص٢٦.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٦.

الأموال والتحف"[١].

ويشير المؤرخون إلى أن أبا الخير النحاس من سنة (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) تحسن حاله وصار يركب فرساً ويطلع إلى السلطان كل يوم[٢].

على أية حال فقد ارتفع قدر النحاس ولمع نجمه بعد خمول وضياع معتمدًا على دهائه وتملقه، فكان كما قال ابن خلدون: "في أن السعادة والكسب إنما يحصلان غالباً لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة"[٣]. وساعده في ذلك ما وصف به الظاهر نفسه من أنه كان كثير الاستماع لمن حوله والميل إلى قولهم[٤]، حتى لو كانوا وسائط سوء[٥]، وأنه "كان صاحب ودينه"[٦]، وبالجملة: "الدعوى عنده لمن سبق"[٧]، هذا فضلاً عما وصف به من حبه لـ "رفع الأراذل على الأماثل"[٨]، فأصغى للنحاس الذي صار يصعد إليه كل يوم، فعظم على آحاد الناس، أما أرباب

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٤.
(٣) المقدمة: ص٣٦٢.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٧٢: ٧٣، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٨٢.
(٥) السخاوي: الذيل التام على دول الإسلام، مج٢، ص٨٧.
(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٢.
(٧) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٤٦٣، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٩٩، ويبدو أنها كانت سمة عامة في الأتراك وقد قال أحد الكتاب: ".... وقد اعتبرت كثيرًا من الأتراك فوجدتهم يميلون إلى أول شاك، وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم" السبكي (تاج الدين عبدالوهاب ت ٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار، أبوزيد شلبي، محمد أبوالعيون، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص١٣.
(٨) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٥.

الدولة فلم يكترثوا به، بل أهملوا أمره[١]، وربما كان ذلك منهم استحقارًا له واستخفافاً لشأنه.

وظـائفـه:

وبعد أن وصل أبوالخير النحاس إلى ما وصل إليه من مكانة عند السلطان، وسهل له الاستيلاء على أموال بعض رجال الدولة من خلال السعاية فيهم[٢]، كان من الطبيعي أن يعهد له ببعض الوظائف المهمة في الدولة والتي تؤكد على ثقة السلطان في حرص النحاس على مال الدولة والسلطان، وكانت أول هذه الوظائف وهي "وكالة بيت المال"[٣]، والتي انتزعها من القاضي ولي الدين السفطي[٤]، في شهر ربيع الآخر سنة

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٤.

(٢) وقد أشار ابن خلدون إلى ما يشبه ذلك عند حديثه عن طروق الخلل للدولة، إذ أكد أن الهِرَم إذا لحق بالدولة وعمها الفقر، استفحل أمر الموظفين في الاستطالة والقهر لمن تحت أيديهم فتعظم ثروتهم، وتفشوا السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد. عنه انظر: المقدمة، ص٢٧٨.

(٣) وكالة بيت المال: من الوظائف الدينية التي لا يليها إلا أصحاب العدالة البارزة من أهل العلم والديانة، وموضوعها التحدث في حمول المملكة مصرًا وشاماً. للمزيد انظر، السبكي: معيد النعم، ص٦٥، القلقشندي (أبي العباس أحمد، ت٨٢١هـ): صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٤، ج٤، ص٣١، ٣٦: ٣٧، المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٦٤: ٣٦٥، السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن، ت٩١١): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ج٢، القاهرة، ط١، ١٩٦٨، ص١٣٠، ١٣٢، البيومي إسماعيل: النظم المالية في مصر والشام، ص٥٩: ٦٠.

(٤) محمد بن أحمد بن يوسف الشافعي قاضي القضاة بالديار المصرية، السفطي نسبة إلى سفط الحناء بالوجه البحري، ولي المناصب الجليلة وارتفع قدره، ولكن ساءت سيرته، فسلط الله عليه صاحب الترجمة، فعمل عليه حتى صُودر وحُبس، فاختفى ثم ظهر بعد نكبة النحاس، وما لبث أن توفي في نفس السنة ٨٥٤هـ وقد جاوز الستين. عنه انظر ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، ص٢٣٤، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٩، ص٢٩٩: ٣٠٣، رقم (٢٠٦٤)، السخاوي: التبر المسبوك في =

٨٥١هـ/ ١٤٤٧م[١]. وكان ذلك أول خمول السفطي وبداية النحاس[٢].

وفي الحادي عشر من شهر رمضان من نفس السنة خلع عليه بنظر الجوالي[٣] عوضاً عن برهان الدين بن الديري[٤] وفي العام التالي أضيف له نظر الكسوة[٥] وكانت في يد السفطي، فتولاها في شهر ربيع الأول عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م[٦].

وفي الشهر التالي مباشرة خلع عليه بنظر البيمارستان[٧] عوضًا عن

=

ذيل السلوك، القاهرة، د.ت، ص٣٣٤: ٣٣٧، وجيز الكلام، مج٢، ص٦٥٠: ٦٥١، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٥٨، ٢٦١: ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٦،٣٢٥.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٢.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٥٤.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٤، السخاوي: التبر المسبوك، ص١٨٥.

(٤) إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن سعد القاضي برهان الدين بن شمس الدين الديري المقدسي الحنفي نزيل القاهرة، ولد سنة ٨١٠هـ، ببيت المقدس ثم أتى إلى مصر وتعلم وحفظ القرآن، وولي عدة وظائف منها نظر الجوالي ثم الجيش ثم كتابة السر، كما باشر التدريس، وتوفي سنة ٨٧٦هـ. عنه انظر، السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص١٥٠: ١٥١.

(٥) ويقصد بها كسوة الكعبة المشرفة والتي أصبح لها ناظر مستقل منذ أواخر دولة الظاهر برقوق، كما كانت لها أوقاف محددة ربما شملت بلدة بأكملها، وبعد إعداد الكسوة يقام لها احتفال كبير يطلق عليه دوران المحمل. للمزيد انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٥٧: ٥٨.

(٦) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٦٧، النجوم، ج١٥، ص١٣٥، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٠١، الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٥٢.

(٧) نظر البيمارستان من أجلِّ الوظائف الدينية وأعلاها قدرًا، والمراد البيمارستان المنصوري الذي أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين، وكان دارًا لست الملك أخت الحاكم الفاطمي، فغير معالمه وزاد فيه، حتى أصبح لا نظير له في الدنيا في بره =

السفطي أيضاً[١] مضافة إلى ما بيده من وظائف سابقة[٢]، وفي شهر رجب من نفس السنة أضيف إليه نظر المواريث[٣] المتعلقة بالوزير[٤]. هذا بالإضافة إلى نظر خانقاة سعيد السعداء[٥] وخطابة جامع عمرو ووظائف أخرى[٦]. بل وصل الأمر معه أنه كان بمجرد تمليحه للسلطان بالرغبة في وظيفة معينة، تُعطى له، وعلى المبلغ الذي يحدده هو، كما حدث عند طلبه

=

ومعروفة. للمزيد انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨، المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٥٩: ٢٦٢، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١١٥، أحمد عبدالرازق: العمارة والفنون في عصر سلاطين المماليك، بحث ضمن المرجع في تاريخ مصر في العصور الوسطى، تقديم ومراجعة: زبيدة عطا، حسنين محمد ربيع، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٣، ص٦٤٤: ٦٤٧.

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٦٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٦، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٠٣: ٢٠٨.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٥، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٣) وكان صاحبها مسئولاً عن إيراد مال من يموت ولم يترك له وارثًا إلى بيت المال وكذا الأراضي والعقارات. عنها انظر. القلشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٠، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣١١، البيومي إسماعيل: النظم المالية، ص٤١، ١٦٨، ٢٨١.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٧٦، وإن كانت قد أخذت منه في الشهر التالي مباشرة وردت للوزير، نفس المصدر، ص١٧٧.

(٥) خانقاة سعيد السعداء وتعرف أيضاً بالصلاحية بالقاهرة بخط رحبة باب العيد، كانت داراً في الدولة الفاطمية تعرف بدار سعيد السعداء، وهي مقابل دار الوزارة ثم جعلها صلاح الدين سكنًا لفقراء الصوفية القادمين من بلاد الشام، وقد تولى مشيختها أكابر القضاة. للمزيد انظر السبكي: معيد النعم، ص١٢٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨، ج١١، ص٣٧٠: ٣٧١، المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٧٣: ٢٧٥، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٠: ٢٦١.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

نظر الخانقاة[١]؛ وكذلك عند تلميحه بنظر الوقف المخصص لخدام المدينة الشريفة[٢]، بل يذكر أنه "لو أراد أبوالخير الزمامية إذ ذاك لوليها"[٣]. وهذا كله ليس بغريب في زمن الضعف والاضطراب إذ "يرتفع فيها كثير من السفلة، وينزل فيها كثير من العلية"[٤]، وزاد الأمر سوءً آنذاك ما وصف به السلطان جقمق نفسه من حبه لرفع الأراذل[٥].

أما عن طريقة مباشرته لهذه الأعمال فيذكر المؤرخون أنه ظلم وعسف وفعل كل قبيح[٦]، واستولى على كثير من الأموال، كما فعل مثلاً عندما نزل خانقاة سعيد السعداء، إذ يذكر أنه وجد بها أموالاً كثيرة فوضع يده عليها، بل وقرر على من بها من الصوفية عشرة دراهم على كل شخص، وكانت تجمع بواسطة أحد أصحابه[٧]، وقيل أنه بدأ بخرابها[٨]؛ وهذا فضلاً عما فعله في بيت المال والذي قيل فيه:

يقـــول بيـــت المـــال لمـــا رأى * تـــدبيره ذاك الجلـــي الجليـــل**

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ١٧٩.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٢٣، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٠١، ٢٦٨.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٢٣، والزمامية: يقصد بها زمامية الدور السلطانية، وصاحبها من أكبر الخدام، وهو المعبر عنه بالزمام، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه. عنها انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٦٤.

(٥) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٥.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٧) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧٩، وصديقه هو أبو الفتح الطيبي الذي سيوليه المناصب فيما بعد.

(٨) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص١٥٥.

الله أعطـــاني وكـــيلاً رضـــا * فحســبي الله ونعــم الوكيــل**[١].

ويكفيه عارًا استيلائه على أموال من الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين[٢]، وكذلك أموال المواريث[٣]، فضلاً عن ذلك فإنه ما كان يتولى وظيفة، إلا ويبحث في كل الوسائل التي يستطيع من خلالها أن يحصل على أكبر قدر من المال؛ ومن خلال دهائه وحيله يستطيع أن يثبت تبعيتها لما تحت يده ويستخلصها ممن هي تحت أيديهم[٤]. بل إنه كان يعز عليه أن يترك أي تركة مصادرة أو وجه من وجوه الأموال دون السيطرة عليه، أو حتى التحدث فيه، ولو كان الثمن هو الإيقاع بأحد القضاة أو أحد رجال الدولة[٥].

وإذا كان الأمر قد وصل بالنحاس إلى هذا الحد، فينطبق عليه قول القائل: "فإذا رأيت ديوانًا من وزير أو غيره يخرج من بيته وقد امتلأ بطنه بالحرام، وهو لابس الحرام وجلس على الحرام وفتح الدواة الحرام، وأخذ يمد الأقلام للحرام، ثم عاقب للحرام، أفليس حقًا إذا رأيته بعد زمن يسير مضروبًا بالمقارع، يطاف به في الأسواق ويجنى عليه"[٦].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٦.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

(٣) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص١٣٠، ١٥٧.

(٤) عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠١، ٣٠٢.

(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٢: ٢٥٣، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٣، ٣٠٥.

(٦) السبكي: معيد النعم، ص٢٩: ٣٠، ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ت ٩٥٣هـ): نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٣٩: ٤٠.

ولله در القائل:

ومـــن يكـــن بالملـــك ذا ســـكرة * يَصْـحُ إذا مـا الملـك عنـه انتقـل**[١].

مكانتــه:

وإذا كان أبوالخير النحاس قد جمع وظائف عدة تحت يده، وكلها ذات قدر كبير، فإن نفوذه لم يقف عند حد ما ولي من وظائف، بل تعدى ذلك كله، إذ نال من العز ونفوذ الكلمة ما لم ينله غيره من أهل زمانه، وذلك بشهادة معاصريه من المؤرخين[٢]. حتى قيل: "وصار صاحب الحل والعقد بمصر"[٣]، بل ملك الديار المصرية والشامية والحلبية وغيرها[٤]، وصارت "جميع الأمور جليلها وحقيرها إليه"[٥]، و"أبطل كلمة جميع المباشرين"[٦]، بل أصبح هو المشار إليه في المملكة والمتصرف فيها كيفما يشاء[٧].

ومما لاشك فيه أن هذه العبارات من معاصري النحاس كانت لها دلائل تؤكدها. من ذلك مثلاً اختصاصه بالسلطان، والذي "تزايد ميله إليه واختصاصه به إلى الغاية"[٨]، حتى وكله في جميع أموره[٩]، "فاشتهر وتعدى

---

(١) الغزالي (أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ت٥٠٥): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، فارسي عربه أحد تلامذته، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٦٨.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٦.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٦.

(٧) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦.

(٨) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.

(٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥١: ١٥٢.

طوره"[١]، إذ صار يطلع إلى القلعة كل يوم بعد نزول أرباب الدولة من الخدمة ويتقاضى أشغال السلطنة[٢]، حتى أنه ربما يحل ما أبرمه أهل الدولة مع السلطان[٣]؛ فيكون كالمستوفي بعدهم[٤]. وبالجملة كانت الأمور جليلها وحقيرها مفوضة إليه، فلا ينبرم أمر دونه ولا يعول إلا عليه[٥].

وقد تجلى نفوذه في ثلاث صور:

١- سيطرته على الوظائف:

إذا كان أبوالخير النحاس قد وصل إلى هذه الدرجة، فلا عجب أن تكون وظائف الدولة بيده يولي ويعزل كما يحلو له؛ ففي شهر جمادى الأولى سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٤٩م استقر "علي بن اسكندر"[٦] في حسبة القاهرة بسفارة النحاس[٧]. وقبلها المعمارية[٨] وبنفس الطريقة[٩]. وفي شهر صفر

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.
(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٥، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٢.
(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦: ٣٢٧.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٣.
(٦) علي بن إسكندر ويعرف بابن الفيسي، لأن والده كان ابن أخت زوجة كمشبغا الفيسي، باشر المعلمية ثم المعمارية ثم الحسبة ثم الولاية، ونقابة الجيوش فيما بعد، توفي سنة ٨٧٣هـ. عنه انظر السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص١٩٢، رقم (٦٥٦).
(٧) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٠، ٢١٩، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٥، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٥٩، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٨٨.
(٨) وموضوعها أن يكون صاحبها متكلمًا في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه وتجديده من القصور والمنازل والأسواق وغيرها. عنها انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢.
(٩) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٥.

سنة٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م استقر "أبوالفتح الطيبي"(١) أحد أعوان النحاس في نظر جوالي دمشق ووكالة بيت المال بها، وذلك بسفارة صديقه (النحاس)(٢)، بل ربما أسندت جملة من الوظائف لشخص واحد بفضل وساطة النحاس، وحدث ذلك عندما أسندت وظائف عدة إلى نديمه "يحيى بن العطار"(٣) بسفارته أيضاً(٤)؛ ولا يخفى أن ذلك كان يتم مقابل دفع الرشاوى له(٥).

حتى المناصب العسكرية لم تسلم من يده، فقد نسب إليه تولية أحد الأشخاص في استدارية(٦) السلطان بحماة وحجوبتها(١)، فضلاً عن وظائف

---

(١) أبوالفتح محمد الطيبي، كان أول أمره يتكسب بتحمل الشهادة بحوانيت الشهود، ويصحب النحاس أيام فقره، ولما تولى النحاس، أخذ يستعمله فيما يريد السيطرة عليه من الأموال، وهو من وكله النحاس في أخذ أموال الخانقاة، ثم رفعه بأن ولاه المناصب العالية، لكن أساء السيرة وظلم وعسف واستولى على الأموال، فآل أمره للقتل على يد القاضي المالكي بدمشق سنة ٨٥٤هـ. عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٠، ٣٠٩، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٥، ١٦١، السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص٥٣.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٠، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٥، السخاوي: وجيز الكلام، مج٢، ص٦٤٦. وذلك مقابل أن يقوم للخزانة الشريفة بخمسين ألف دينار. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٥.

(٣) شرف الدين يحيى بن أحمد بن عمر الحموي الأصل الكركي القاهري الشافعي ويعرف بابن العطار الشاعر المشهور مع اشتغال بالفقه ومباشرة التوقيع. توفي سنة ٨٥٣هـ عن أربع وستين سنة. عنه انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٦٨: ٢٦٩، السخاوي: وجيز الكلام، مج٢، ص٦٣٦: ٦٣٧، رقم (١٥٥٧).

(٤) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦٩.

(٥) عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٧٩.

(٦) الاستدارية: وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره، وله الحديث والتصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من =

أخرى أنُعم عليه بها استجابة للنحاس[٢]؛ والذي كان بإمكانه تغيير قرارات السلطان نفسه، إذا حدث وعُزل من يريد هو ولايته، وحدث ذلك عندما رسم السلطان بعزل نائب الكرك وتولية غيره، فاستطاع النحاس أن يؤثر على السلطان، حتى رسم بإبطال ما أمر به سابقاً، وكل ذلك في أقل من نصف نهار[٣] فضلاً عن هذا فقد حدث وعُزل ولاة أو موظفين مراعاة لخاطره أكثر من مرة[٤].

وإذا كان النحاس قد أوصل أصحابه إلى الوظائف السنية بسفارته ومقابل الأموال[٥]، فليس بغريب أن تكون أخلاقهم وطريقتهم هي نفس أخلاق وطريقة صاحبهم، فقد ذكر عن هؤلاء أنواع من الظلم والعسف والتلاعب بأقوات وأرزاق الناس، مما أدى إلى الثورة عليهم. كما حدث مع المحتسب[٦]

=

النفقات والكساوى، وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. عنها انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠.

(١) الحجوبية: وموضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند بنفسه أو بنائب عنه، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد. وعرض الجند وما شابه ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٦.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٥، أحداث شهر ربيع الأول سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٠، السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧٩.

(٥) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣١٠، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٥، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٣، الذيل التام، مج٢، ص٥٣.

(٦) عنها انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٧، ٢١٩، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٨، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٥.

الذي عينه النحاس والذي وصف بأنه "من الحرام مكتسب"(١). أما وكيل بيت مال دمشق وصاحب جواليها فقد ظلم وعسف وفعل ما لم يحتمله الناس إلى أن آل أمره إلى ضرب عنقه جزاء ما اقترف(٢). ولا أدل على فساد طريقته من تعاظم ثروته، والهدايا التي كان يبعث بها إلى صديقه وصاحب نعمته النحاس، والتي ذكر أنها "شيء لا حصر له كثرة" من فضة وأواني وأقمشة وأمتعه وغيرها مما يفوق الوصف(٣).

ولله در القائل:

إذا تولى الأمر غير رجاله * ولوا الأمور لكل فَدْم ساقط**(٤).

٢- تآمره على رجال الدولة:

لم يكتف النحاس بما وصل إليه بل عمل على التخلص من رجال الدولة والمقربين من السلطان واحدًا تلو الآخر(٥)، وكأنه يريد ألا يشاركه أحد في نفوذ الكلمة والسيطرة على السلطان. ولهذا أخذ في استعمال الحيلة والدهاء في الكيد لرجال الدولة والحط عليهم عند السلطان لاستصدار القرار

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦١. فيذكر أنه حجر على بيع القمح إلا بإفراج منه للبائع، وقيل أنه كان يشتري القمح بسعر ثم يبيعه بسعر آخر أزيد من الأول. حتى أن بعض الناس اشترى قمحًا بغير إذنه فضربه وشهره. عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٩.

(٢) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٦٩، النجوم، ج١٥، ص١٦١، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٣، وجيز الكلام، مج٢، ص٦٤٦، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٠: ٣١١، ٣٢٠.

(٣) عنها انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٤) الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص٦٩.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٤.

بإبعادهم، وربما مصادرتهم.

وكان أول من بدأ به هو قاضي القضاة ولي الدين السفطي[١]، والذي أخذ في معارضته والكيد له عند السلطان وساعده في ذلك سوء سيرة السفطي[٢]، وبالفعل وجد من السلطان الاستجابة[٣]. فآل أمر السفطي إلى العزل والمصادرة، بل والدعوى عليه بمجلس القضاء ثم انتهى أمره إلى الحبس[٤]؛ أما النحاس فخلع عليه بما كان تحت يد السفطي من وظائف.

كما أبعد النحاس برهان الدين بن الديري ناظر الجوالي آنذاك، وأخذ ما بيده، وذلك بعد مناظرة وقعت بينهما بحضرة السلطان. فبالغ ابن الديري في الحط عليه ووبخه بحضرة الملأ من الناس؛ فعز على السلطان أن يُعامل خاصته ومن يصرح بمحبته هكذا فانتصر للنحاس، وذلك بإبعاد ابن الديري والخلع على النحاس[٥].

وكان من أخص خواص السلطان الذين عمل عليهم المذكور "شمس الدين الكاتب"[٦] الذي ادعى عليه النحاس عند القاضي المالكي بفظائع

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣٢.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣١٢: ٣١٤.

(٣) ربما كان ذلك لما بلغه عنه من تجاهره بالفحش من القول. وربما كان طمعًا في ثروته.

(٤) للمزيد عما آل إليه أمر السفطي انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٣١٣، ٣١٤، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٤، السخاوي: التبر المسبوك، ١٤١، ١٤٢، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٥٧، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢١٧، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٣.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٤.

(٦) الشيخ محمد شمس الدين الرومي ثم القاهري الحنفي عرف بالكاتب قدم من بلاده واختص بالظاهر ططر، فأثرى وحصل الكتب النفيسة، وحظي عند الظاهر جقمق ونالته السعادة واستمر على ذلك إلى أن ارتفع النحاس فعمل عليه حتى حبسه =

توجب قتله، وآل الأمر إلى تعذيره وسجنه، وقد ذهب إلى السجن على هيئة غير مرضية[١] إرضاءً للنحاس، ويذكر أن السلطان كان يهدف إلى إتلافه أصلاً إلا أن شفع فيه[٢]. ولا يخفى أن غرض النحاس كان التخلص منه حتى يخلو له وجه السلطان؛ ولهذا أثار حفيظة السلطان عليه، ولعل رغبة السلطان في الاستيلاء على أموال الكاتب كانت هي السبب في موافقته للنحاس؛خاصة وأن ذلك من طبائع السلطان[٣]، حتى أنه وصى ابنه بـ "هز موظفين الدولة دون إتلافهم فإنهم شجرة مثمرة"[٤].

كما عمل على الأمير سودون السودوني الحاجب[٥]، حتى صدر الأمر بنفيه، وبعد الشفاعة فيه سمح له بالإقامة بالصحراء بطالاً، وتذرع في ذلك بأن سودون رفض بيع نصف مغل إقطاعه (من القمح) للمحتسب وقت

=

السلطان ثم أفرج عنه مع الأمر بلزومه داره. توفي سنة ٨٥٥. عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٤٧: ٣٤٨، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١١٢، رقم (٤١٩)، التبر المسبوك، ص٣٧٤: ٣٧٥، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٥٢: ٢٥٣.

(١) عنه انظر حوادث الدهور، ج١، ص١٦٨: ١٦٩، ج٢، ص٣٤٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤١، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٥٢.

(٢) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٥٣.

(٣) عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٢: ٣٠٥.

(٤) السخاوي: الذيل التام على دول الإسلام، مج٢، ص٨٦.

(٥) سودون بن عبدالله السودوني الظاهري الأمير سيف الدين ولي الحجوبية من عهد الأشرف برسباي واستمر على ذلك في عهد الظاهر جقمق إلى أن حدث ما حدث له من النفي، ثم أنعم عليه الظاهر في آخر حياته بإمرة عشرة، توفي سنة ٨٥٤هـ، وله من العمر نحو الثمانين عاماً. عنه انظر، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص١٧٨: ١٩٩، رقم (١١٦١).

الأزمة[١]. كان السبب الحقيقي وراء عدائه لسودون أنه قبل رفعة النحاس وأثناء الخلاف بينه وبين الوفائي، كان سودون هذا يكثر من إهانته وضربه، حتى قيل أنه ربما ضربه علقتين في اليوم الواحد[٢]. ولما صار النحاس إلى ما صار إليه دخل عليه سودون وهو في سُدَتِ رئاسته، وبين يديه أصحابه وغالبهم لا يعرف ما وقع بينهما من قبل، فأخذ سودون يعتذر ويتحدث في الواقعة بالتفصيل مع تصريح بالحالة السيئة التي كان عليها النحاس آنذاك، والنحاس يحاول إسكاته، وهو يسترسل ويذكر ما لم يرد النحاس ذكره، فما كان منه إلا قام وعانق سودون مظهرًا أنه لا يحمل له أي ضغينة، وفي محاولة لإنهاء الحديث ادعى النحاس أنه يريد الدخول إلى حريمه، ولكن أخذ الناس في ترديد ذلك أياماً كثيرة[٣].

كما أعمل النحاس الحيلة على أمراء كثيرين فغير خاطر السلطان عليهم، فمنهم من عزله، وربما أحضر في الحديد إرضاءًا للنحاس مثل كاشف الشرقية[٤]، ومنهم من صودرت تركته، مثل الأمير جانبك الذي غير

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٢، وكان ذلك سنة ٨٥٣. للمزيد عن الأزمة وما عاناه الناس آنذاك انظر حوادث الدهور، ج١، ص٢٠٢، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٥٩. وربما جاء رفضه هذا نظرًا لسوء سيرة المحتسب واستغلاله الأزمة لصالحه كما سبقت الإشارة.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٦، وكان ذلك مراعاة لخاطر الوفائي والقنقبائي.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٦: ١٤٧.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣٧٠، وكاشف الناحية من المتحدث في جسورها وسائر ما يتعلق بها. للمزيد انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤: ٢٥، ٦٥.

النحاس خاطر السلطان عليه، فأمر بالترسيم عليه[١]. ومنهم الأمير يشبك الذي شكاه للسلطان وشوش عليه كثيرًا، حتى أرجف بنفيه أكثر من مرة بسبب النحاس. واضطر سيده أن يأخذه إلى النحاس في هيئة مزرية ليصفح عنه، وذلك بعد أن حدث له من الخوف والإذلال الشيء الكثير[٢].

وهكذا أصبح على كل من صدر منه شيء بحق النحاس عليه أن يذهب إليه يسترضيه أن يعفو عنه، وربما لجأ من يشعر بالخطر من جهة النحاس إلى الله. وهذا بالفعل ما حدث من شيخ الخانقاة السعيدية، عندما حاول النحاس الإيقاع به عند السلطان؛ إذ دخل وطاف بالخانقاة وسُمع وهو يدعو على النحاس ويتوسل إلى الله أن ينجيه منه؛ ومن غريب ما يذكر أن سقوط النحاس كان بعدها بقليل[٣].

وكان الوحيد الذي عجز عن الإيقاع به "جمال الدين يوسف"[٤]

---

(١) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٤، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦٦.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٧، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٩: ١٥٠. وعن واقعة أخرى تشبه ذلك انظر. السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٥.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦، والشيخ هو الكمال بن الهمام الحنفي، عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٣٠.

(٤) الجمالي أبوالمحاسن يوسف بن عبدالكريم ويعرف بابن كاتب جكم رئيس صاحب مآثر ومفاخر، ممن أسعده الله، مع إجلاله للعلماء والفقهاء، ما ناكده أحد وأفلح. واستمر على حرمته إلى أن توفي سنة ٨٦٢هـ، عن بضع وأربعين سنة وصلى عليه خلق كثير. عنه انظر ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٢٢٥: ٢٢٧ رقم (٢٧١٦)، البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص٣٩١: ٤٠٠، السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص١٣٢: ١٣٣.

ناظر الخاص[١]، الذي وقف كحجر عثرة أمام مؤامرات النحاس، وكانت المنافسة شديدة بين الرجلين حتى صارا "كفرسي رهان"، إلى أن تقدم عليه النحاس قليلاً، وحاول أكثر من مرة العمل عليه عند السلطان، حيث أطمع السلطان في أمواله، وحسن له القبض عليه ومصادرته. وقد تم له ما أراد وغرمه السلطان جملة مستكثرة من الذهب على فترات متفرقة[٢]. كل ذلك والجمالي يرخي له العنان، إلى أن كان قضاء الله بأخذ النحاس؛ ويُذكر أن الجمالي هو من عمل عليه[٣]. ومن غريب ما يُحكى عنهما أنه قبل نكبة النحاس بمدة يسيرة دخل رجل من أصحاب الأخير على الجمالي وأخذ في تعظيم صاحبه، حتى قال إنه قد تم له كل شيء طلبه، فأنشده الجمالي قول الشاعر:

إذا تـم أمـر بـدا نقصـه * تَـوَقَّ زوالاً إذا قيـل تـم**[٤].

(١) نظر الخاص وظيفة محدثة أحدثها الملك الناصر محمد بن قلاوون، حين أبطل الوزارة، وموضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان. عنها انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٦٩، ج٤، ص٣٠، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٣٠: ١٣١، ١٣٢، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٠٧: ١٠٨، البيومي إسماعيل: النظم المالية في مصر والشام، ص١٢٧: ١٢٨.

(٢) عنه انظر: ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٤١، ١٥٧، ٢٥٨، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٥: ٣٢٦، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٩٢، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.

(٣) عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص١٤٤: ١٤٥، ٢٢٤، ابن شاهين الظاهري: نيل الأول، ق٥، ج٢، ص٣٠٥: ٣٠٦، وذلك خلافًا لمن قال أن الجمالي لم يتعرض له بحال من الأحوال، في حين كان النحاس يعمل عليه بكلتا يديه. عنه انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٧.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٧.

هكذا تقدم النحاس على جميع أرباب الدولة وتخلص منهم[١]، لذا هابه كل أحد من عظماء الدولة[٢]؛ حتى قيل: "وهابته الأمراء والقضاة فضلاً عن المباشرين والنظار وهادته الرؤساء من سائر الأقطار"[٣] فعظم تعاظمه على جميع أرباب الدولة[٤]، وأصبح الجميع تحت أمره[٥]، والكلمة محصورة فيه[٦].

وعليه فإن النحاس لم يحفظ نعمة الجاه والنفوذ التي أنعم الله عليه بها، إذ استخدمها في الإيقاع بكل من لا يرضى عنه، أو حتى وجد منه بادرة تقرب من السلطان أو سيطرة على أمر من الأمور، وذلك كله دون خوف من الله، وقد أشار صاحب معيد النعم إلى من هو مثل ذلك بقوله: "... وأن تعرف أنك أنت والرعية سواء لم تتميز عنهم بنفسك، بل بفعل الله الذي لو شاء لأعطاهم ومنعك، فإذا كان قد أعطاك الولاية عليهم ومنعهم فما ينبغي أن تتمرد وتستعين بنعمته على معصيته وأذاهم، بل لا أقل أن تتجنب أذاهم وتكف عنهم شرك وتجانب الهوى والميل والغرض"[٧].

٣- لجوء الناس إليه لقضاء حوائجهم:

زادت منزلة زين الدين النحاس وارتفع اسمه عند العامة، فكثر السعي إلى بابه، و"زيد في التنويه بذكره وخطابه وازدحم عنده الناس من سائر الأصناف والأجناس، ونادمه غير واحد من أهل الأدب ذوي الفضائل

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٨.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٧.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤١.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٥.
(٦) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٨.
(٧) السبكي: معيد النعم، ص١٣: ١٤.

والعالين في الرتب إلى غيرهم... بل ربما يصرح الواحد منهم بكونه في عبوديته وقد ملك رقه، وتطبع في الحشمة. فتكلف وتنطع في ألفاظه التي ليس بها يعرف، وأغلظ حتى في تخيله وحدسه، وصار في رياسة وضخامة وغفلة عما يلاقيه أمامه"(١). ولم تقتصر مكانته على الديار المصرية، بل قصده الناس من كل الأقطار لقضاء حوائجهم عند السلطان، فعظم وأثرى"(٢).

فكان من يُعزل من منصبه لسبب من الأسباب يلجأ للنحاس للتوسط في رده إلى منصبه(٣). ومن يفعل ما يوجب الغضب عليه يلجأ إليه ليشفع فيه(٤). ويكفي القول أن من ينزل بالقرب منه، ويعلن أنه تحت كنفه، يرتفع شأنه(٥). حتى القضاء لم يسلم من نفوذه، إذ يذكر أن القاضي المالكي عزر شخصًا وبالغ في تعزيره وأفحش، حتى أنه أشهره في شوارع القاهرة مراعاة لخاطر النحاس(٦).

حتى حاشيته وحجابه نالهم نصيب من هذه المكانة وفي ذلك يقول السخاوي: "وهرع الناس لبابه وتضرع كل لحاشيته وحجابه، وصار إلى أمر شهير وذكر به الركبان تسير"(٧).

وإذا كان أبوالخير النحاس قد أساء التصرف في أمانة المال

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦.
(٣) عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦.
(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ٢١٧، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٠٤: ٣٠٥.
(٥) عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٢١١.
(٦) عنه انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٢.
(٧) التبر المسبوك، ص٣١٥.

والوظائف، فإنه أيضاً أساء التصرف في أمانة الجاه الذي أنعم الله عليه بها.

وقد نقل عن الحسن بن سهل[١] أن للجاه زكاة، وأنشأ يقول:

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي * وزكاة جاهي أن أعين وأشفع**

فإذا ملكتَ فَجُدْ فإن لم تستطع * فاجهد بوسعك كله أن تنفع[٢].**

فإن كان النحاس قد نفع وشفع فإنه فعل ذلك خدمة لأغراضه وأهوائه، فضلاً عن ذلك فإنه تكبر وتجبر في معاملة الناس؛ وعنه يقول ابن تغري بردي: "صار عنده شمم وتكبر حتى على من كان لا يرضى أقل غلمانه أن يستخدمه في أقل حوائجه، أما على من كان من أمثاله وأرباب صنعته فإنه لم يتكبر عليهم، بل أخذ في أذاهم والإخراق بهم حتى أبادهم شرًا، وأنا أتعجب غاية التعجب من وضيع يترأس ثم يأخذ في التكبر على أرباب البيوت وأصحاب الرئاسة الضخمة، فماذا عساه يقول في نفسه... فليس هذا إلا عِظم الوقاحة وغلبة الجنون لا غير"[٣]. هكذا يصف حال النحاس ويتعجب من طريقته، والحقيقة أنه لا عجب في ذلك، لأنه الطبيعي بالنسبة للوضيع.

ويؤكد ابن خلدون أن "الكبر يحصل من توهم الكمال"[٤]. ولا يمكن لشخص أن يرى نفسه كاملاً إلا إذا كان في الأصل ناقصًا. وقال أحد

---

(١) الحسن سهل بن عبدالله السرخسي أبومحمد وزير المأمون العباسي وأحد كبار القادة والولاة في عهده، اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة وهو والد بوران زوجة المأمون، توفي سنة ٢٣٦هـ عنه انظر: الزركلي: الأعلام، ج٢، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢، ص١٩٢.

(٢) ابن طولون: نقد الطالب، ص٧٢.

(٣) النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٠: ١٥١.

(٤) المقدمة، ص٣٦٣.

الحكماء: "إجلال الأكابر من كرم وحسن الخلال، واحتقار الناس من لؤم الأصل وقبح الخلال"[١].

ولاشك أن طريقته هذه أدت إلى الكراهية له ولكل من يلوذ به[٢]، حتى اعتبر الكتاب أن مجرد الصلة به تسيء السمعة[٣].

محنــة أبي الخير النحاس (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م):

وإذا كان النحاس قد وصل إلى ما وصل إليه من مكانة رفيعة وفعل ما يحلو له، فإنه وكما يقال: "عند صفو الليالي يحدث الكدر"؛ وإذا كان الناس قد امتحنوا به[٤]، فقد امتحن هو الآخر بمحنة لعله يعتبر، وقد حدث ذلك في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م عندما وقفت مجموعة من العامة بشوارع القاهرة إلى تحت القلعة وهم يستغيثون ويصرخون بالسب واللعن ويهددون بالقتل – ولا يعلم أحد السبب– وآنذاك اجتاز "علي بن اسكندر" محتسب القاهرة – وصديق النحاس– فلما رأوه ازداد غضبهم وأخذوا في رجمه مع سبه ولعنه بأفظع الألفاظ، فهرب منهم وهم وراءه بالرجم والسب له وللنحاس، وانضم إليهم مجموعة من مماليك السلطان، وأخذوا يعرضون بذكر النحاس منتظرين طلوعه للقلعة، وكان هذا بالفعل وقت طلوعه إليها، فأعلمه بعض خواصه بالأمر فغير طريقه، فبلغ الخبر للعامة والمماليك، الذين أسرعوا في أثره حتى لحقوا به وأوسعوه سباً وضربًا هو

(١) الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص١٠٢.
(٢) عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص١٨.
(٣) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٧، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥١، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٩٤: ٢٩٨.
(٤) السخاوي: وجيز الكلام، مج٢، ص٦٤٨.

وحواشيه، فاضطر للعودة من حيث أتى وهم وراءه بالضرب، حتى ضربه أحدهم على رأسه وأسقطه عن فرسه، فلجأ إلى بيت أحد المماليك(١)، علّه ينجو بنفسه، ولكن دون جدوى إذ تتبعوه بالضرب والسب داخل البيت لدرجة أنهم عروه وأخذوا أخفافه، وذكر أنهم أخذوه وأركبوه حمارًا وهو عريان وأشهروه، وذكر أفظع من ذلك، وكلما حاول النجاة بنفسه أوقعوا به، واستمر الحال على ذلك إلى أن بلغ الخبر للسلطان، فبعث بوالي القاهرة لتخليصه، وبالفعل تم ذلك بعد أن كاد يقضي عليه. كل ذلك والعامة وراءه بالسب واللعن(٢). فاختبأ في بيت أحد الأمراء إلى الليل، وقيل لعدة أيام ثم توجه إلى داره متخفياً خائفًا مرعوبًا، وقد أشرف على الهلاك.

وقد أكد المؤرخون أنه ضرب وأهين بشكل لم يحدث مع أي من مباشري الدولة قبله، حتى قيل "لو مات أحد من شدة الضرب لمات أبوالخير"(٣)، ولأول مرة يجتمع العامة والمماليك على كلمة واحدة. فوقف الجميع ضده وما منهم إلا يريد قتله(٤). ويذكر أن سبب ذلك ما نقل عنه أنه قال للسلطان: "أن العوام يأكلون بذهبهم حشيشًا، ويأكلون فوقه بأربعة أضعاف حلوى، فالذي يأكلون به الحلوى يأكلون به الخبز"(٥).

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٨: ١٤٩.

(٢) عنه انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٩، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٠، بل عده البعض في حيز الأموات، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٩١.

(٤) عنه انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢١٦: ٢١٩، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦: ٣٢٧، السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦٠: ٢٦١، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٩٠: ٢٩١.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٩.

ولكثرة المهاجمين: "عجز السلطان عن الانتصار لهذا الشيطان مع تألمه في الباطن، فلم يسعه إلا كتم غيظه لكثرة الناس"[١]، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى كره الناس للنحاس وكل من يلوذ به[٢]، وصدق رب العزة حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٣]. صدق الله العظيم وما هو آت أشد وأقوى.

ومن الغريب أن هذه الواقعة – وما سببته من حرج للسلطان– لم تزد النحاس عنده إلا علوًا[٤]؛ ولو كان السلطان جقمق كما وصف بأنه أعدل سلاطين المماليك[٥]، لكان اتخذ ما يعود على الدولة و الرعية بالخير، أما هو فاكتفى بعزل المحتسب لتهدئة العامة[٦]، اعتقادًا منه أن ذلك سيحل الأزمة وينهي الغلاء والجوع الذي عانى منه الناس آنذاك[٧].

وزاد تمسك السلطان بأبي الخير النحاس ورفع قدره، إذ خلع عليه في الثالث من شعبان عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م كاملية مخمل أحمر بمقلب سَمُّور[٨]، ونزل إلى داره وهو في رعب شديد، ومع ذلك شق القاهرة في

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦١.
(٢) وعليه صدق توقع السبكي بأن وجد الظالم "بعد زمن يسير مضروبًا بالمقارع يطاف به في الأسواق ويجنى عليه" معيد النعم، ص٣٠.
(٣) سورة هود: آية (١٠٢).
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٢، الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ص١٨٤: ١٨٥، رقم (١١٨).
(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٦.
(٧) عنه انظر السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص٤٠.
(٨) سمور: حيوان ثديي لا حم بري يستوطن أوراسيا الشمالية، سميك الفراء يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وإدفائها وحسنها، وزعم البعض أنه النمس، وربما أطلق السمور على جلده، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص١١١، حاشية (٤).

نزوله، ولم يسلم من ألسنة العامة، وصار بعضهم يقول: "أيش هذه البرودة!" فيقول آخر: "إذا اشتهيت أن تضحك على الأسمر لبِّسه أحمر". ومع ذلك أخذ هو يسلم على الناس، فمنهم من يرد عليه السلام ومنهم من لم يرد، ومنهم من يقول بعد أن يولي – وبأعلى صوته–: "خيرتك وإلا ينحسوها"، يعني رقبته، ولم ينزل معه من الأعيان إلا ناظر خاص(١)؛ حتى قيل في هذه المسيرة أنه قاسي من الإساءة والسب والتجريح ما يُقسي القلب ويشعر بغضب الرب(٢).

وكان من المفروض أن يعتبر المذكور، ويستوعب ذلك الدرس القاسي، ولكن هيهات!! لأنه ليس بالشخص العادي الذي يحس ويفكر ويتدبر ويعتبر، بل هو على النقيض تمامًا إذ يذكر أنه تجبر أكثر مما كان. حتى عُدَّ ذلك ضرب من الجنون(٣)، وليس هذا بغريب على من وصف بأنه "كان جِبَلَّة شرٍّ"(٤).

ولكن إذا كانت المحنة قد انتهت وسكن الأمر، وعاد النحاس إلى ما كان عليه، فإنها كانت بداية انحلال أمره(٥)، إذ لم يستمر الأمر أكثر من عدة أشهر، وصدق رب العزة حين يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٦)، و﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾(٧).

---

(١) للمزيد انظر: ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٢٠، النجوم الزاهرة: ج١٥، ص١٥١.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦١.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥١، ١٥٦.
(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٩.
(٥) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٢٩١.
(٦) سورة الفجر: آية (١٤).
(٧) سورة القيامة: آية (٣٦).

ولله در القائل:

نرفــع دنيانـــا بتمزيـــق ديننـــا * فـلا ديننـا يبقـى ولا مـا نرفـع**[١].

نكبــة أبي الخير النحاس (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م):

لم يمض عام على حادثة النحاس وتحديدًا في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، عندما توجه المماليك إلى القلعة للتربص بالنحاس متفقين على قتله[٢]، وكان آنذاك بالقلعة، فدخل مسرعًا وأعلم السلطان بالأمر، فرسم له أن يقيم بالقلعة حفاظاً على نفسه منهم، فزاد غضبهم على النحاس وإصرارهم على قتله، فتوجهت فرقة منهم إلى بيته بطريقة مزعجة، ولما علم مماليكه منعوهم وأغلقوا الأبواب، ووقع القتال بين الفريقين لمدة ساعة، حتى أشعل المماليك النار في الباب، ثم دخلوا البيت ونهبوا ما فيه من الأمتعة والأقمشة والتحف وكان شيئًا كثيراً[٣]، حتى أنهم سلبوا حريمه جميع ما كان عليهم، وأفحشوا في أمرهن من الهجوم عليهن والجر لهن، ثم خرجوا بعد أن تركوا البيت خالياً. واستمرت النار تعمل في الباب دون الوصول للبيت نفسه لأنه كان فوق الريح، لكنها امتدت إلى عدة

---

(١) السبكي: معيد النعم، ص٤١.

(٢) وما كان ذلك إلا رغبة في التخلص من شروره وسيطرته، وربما وقف وراء ثورة المماليك عليه أحد أعدائه أو حتى مجموعة منهم، لما يئسوا من الإيقاع به عند السلطان، ويشير البقاعي إلى أن ناظر الخاص هو من دفع المماليك لذلك بعد أن وعدهم بالمال، عنه انظر، إظهار العصر، مج١، ص١٤٤: ١٤٥.

(٣) ويذكر أن أغلب ما نهب كان ضمن الهدايا التي بعث بها إليه صنيعته على دمشق أبوالفتح الطيبي، وهي شيء يفوق الوصف. عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

بيوت إلى أن حضر والي القاهرة، وتمت السيطرة عليها بعد جهد كبير، فكان يوماً مهولاً من شدة النهب والسلب والنيران(١).

ومن أكثر ما يلفت النظر هو ما نهب من بيت النحاس من الذخائر والتحف، والذي كان شيئًا يفوق الحصر، حتى أن المباشرين ببابه أخذوا ما استطاعوا وخرجوا به إلى أهل الأسواق وسائر التجار، لبيعهم إياه بالقوة، وأخذ عوضه ذهبًا قدر المستطاع، وذلك لإخفائه من النهابة، فخسر التجار كثيرًا وتعدى الضرر فيه للكل(٢). وذلك كله في وقت كان الناس فيه يتألمون فقرًا وجوعًا حتى الموت(٣). وهو يظلم كيف يشاء ويجمع ما شاء دون رقيب أو حسيب.

ورغم ما حدث فإن السلطان ظل على تمسكه بالنحاس، محتفظًا به في القلعة، إلا أن المماليك لم تكتف بما فعلته ببيت النحاس، وتجمعوا بصحبة بعض العامة في اليوم التالي، ووقفوا تحت القلعة مطالبين السلطان بتسليم النحاس، إلا أن السلطان رفض طلبهم، وأمام إلحاح أمراء المماليك هدد السلطان بخلع نفسه من السلطنة، وأن يرسل أهله إلى الشام(٤).

وعبثاً حاول أحد الأمراء إقناع السلطان بتسليم النحاس، مشيراً إلى

---

(١) عن تفاصيل الأزمة انظر: ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٦٦: ٢٦٧، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٥٩: ١٦٠، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٧: ٣٢٩، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤، وجيز الكلام، مج٢، ص٦٤٨، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٠٩: ٣١٠.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٣) عن الأزمة الاقتصادية في ذلك الوقت ومدى معاناة الناس انظر السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص٤٠.

(٤) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٢٦٧، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٢٩، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٠.

أنه يوجد في المملكة من أمثاله الكثير، وهنا غضب السلطان حتى شق جيبه ومزق ما عليه من ثياب، كل ذلك والنحاس لا يزال بالقلعة[١]. فأي ثقة وارتباط من السلطان بهذا الرجل؟! حتى يحميه بالقلعة ويهدد بخلع نفسه.

ظل النحاس بالقلعة إلى يوم الخميس إذ نزل إلى بيته خلسة[٢]، وتحصن به وغلق الأبواب، وانقطع عن الركوب والظهور لمدة أسبوع[٣]. ويبدو أن مدة الأسبوع هذه كانت كافية لتخلص السلطان من تأثير وسيطرة النحاس، أو ربما أنها أعطت الفرصة لأعدائه للإيقاع به عند السلطان، منتهزين فرصة غيابه عن المجلس. أو لعلها الشكوى التي وصلت إلى الحضرة من بلاد الشام ضد الطيبي – صنيعة النحاس– مؤكدة مدى ظلمه وتعسفه[٤]. ويذكر البعض أن السبب هو خروج النحاس من القلعة خلسة دون إذن السلطان[٥].

على أية حال ومهما كان السبب فقد أرسل إليه السلطان يأمره بالسفر إلى المدينة المنورة[٦] حتى تنتهي الأزمة، وأن يكتب بجميع موجودة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٠، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٢) ويبدو أنه قد نزل إلى بيته خوفًا مما يمكن أن يحدث له إذا استجاب السلطان لأمراء المماليك، ولربما لرفع الحرج عن السلطان أمام أمرائه.

(٣) ابن تغري بردي: الحوادث الدهور، ج١، ص٢٦٩، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٠.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٠.

(٦) كانت عادة المماليك أنه بعد الغضب على الموظف أو مصادرته يتم نفيه خارج الديار المصرية خوفًا من إثارته الشغب أو المتاعب. عنه انظر. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٧١.

ويرسل به إلى السلطان مع عمل الحساب[١]، فلما علمت المماليك بذلك سكن غضبها، ويمكن القول أن ما فعله السلطان لم يكن تضحية بالنحاس، وإنما محاولة لتسكين المماليك حتى تنتهي الأزمة. فلما خاف المماليك من المماطلة؛ لأنهم أدرى بالسلطان وسياسته، تجمعوا في اليوم التالي مطالبين بتنفيذ القرار، فغضب لضغطهم عليه، وقرر الرجوع فيما أصدره سابقًا، وأن يظل النحاس بالقاهرة على حاله، ولا يخرج إلى المدينة، بل وتجهز لقتال هؤلاء المتمردين وحصنت القلعة[٢].

وكأنه عز عليه مفارقة صديقه، أو أدرك أنه تسرع فيما أصدره بالأمس، فأراد تدارك الموقف والإبقاء على جليسه بأي شكل، وإن كان الثمن محاربة المماليك في شوارع القاهرة، فأي نفوذ وسيطرة هذه؟! وفي محاولة من السلطان لتدارك الأزمة يرسل بطلب مجموعة من المماليك الثائرة لإرضائهم، وإعلامهم أنه غفر لهم، وبالفعل تم ذلك، فنزلوا وقلوبهم منكرة على أبي الخير النحاس[٣]، وكثر الهرج وماج الناس واضطربوا[٤]، ويذكر أن الناس انقسموا في شأنه إلى قسمين، فمنهم من لم يسلم عليه ولا يلتفت إليه، ومنهم من صار يرتجيه ويتردد إليه وهم قليل[٥]، مستبعدين أمر زواله، معتقدين أن هذه المرة كالتي قبلها.

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٠، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٠: ١٦١، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٤) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٠.

(٥) عنه انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٢.

محاولة النحاس تدارك الأزمة:

أراد النحاس أن يزيل أي أثر لما جرى في نفس السلطان جقمق، وجعل سفيره في ذلك "شرف الدين موسى التتائي"[١] – والذي يذكر أنه كان أصلاً مبعوث السلطان لإخبار النحاس بالخروج وحصر أملاكه[٢] – وأخذ شرف الدين هذا يقضي حوائج النحاس عند السلطان، إلى أن تكشف أنه ربما كان يدس للنحاس عند السلطان[٣]، وهو ما شك فيه النحاس بالفعل، فقرر التصدي للأمر بنفسه، وبالفعل طلع إلى القلعة خلسة وقت الفجر وبدون إذن السلطان، واختفى عن الأنظار إلى أن انفض الموكب، فتحيل حتى دخل على السلطان واجتمع به، فأصلح ما كان فسد من أمره سابقًا[٤]. وترك له السلطان ما رسم بأخذه من قبل[٥]؛ ورجع إلى داره وقد هابته الناس وكثر ترددهم إليه. فتحقق للناس ميل السلطان إليه، وكف جميع أعدائه عن

---

(١) موسى بن علي بن محمد بن سليمان الشرف التتائي القاهري الناصري الشافعي ويعرف بالأنصاري، ولد سنة ٨٢٠هـ بقرية تتا بالمنوفية حفظ القرآن وذهب إلى القاهرة واشتغل بالعلم، إلا أنه كان يحب التجارة، ثم كثر تردده على السلطان حتى نبل عنده وتولى الوظائف الجليلة أيام الظاهر، وزادت مكانته في عهد اينال حتى ولاه ديوان الجيش، فتصرف وأحسن التدبير. توفي سنة ٧٨١هـ عنه انظر ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١١، ص٣٠٣: ٣٠٥، رقم (٢٥٦٨)، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٤: ١٨٦.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٢، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦١. السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٤: ١٨٥، التبر المسبوك، ص٣١٥.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٩٢، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٠.

(٥) حتى أنه أبطل الأمر السابق بعزل صديقه الطيبي، عنه انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٢.

الكلام في أمره مع السلطان(١).

وهكذا ينجح النحاس في قلب الموازين بمجرد اللقاء بالسلطان، وهو ما يدل على مدى حب السلطان له وتمسكه به؛ وكذلك دهاء ومكر النحاس وتمسكه بالسلطة، فلا يزال يحتال بكل حيلة حتى سكت السلطان عنه(٢).

الفتــك بأبـي الخـير النحــاس:

رغم النجاح الذي حققه النحاس إلا أنه لم يهنأ به، وذلك بفضل أعدائه، الذين عملوا عليه عند السلطان حتى غيروه عليه(٣)، وصرف الله قلب السلطان عن النحاس(٤) لتزول تلك المحنة عن الناس(٥)؛ ومن الملفت للنظر – بل هو الطبيعي لمثل النحاس– أن تأتي الدعوة عليه ممن كان صديقه سابقًا، ورسوله إلى السلطان "شرف الدين موسى التتائي"(٦). والذي نجح في تغيير السلطان عليه وإطماعه في أمواله.

فرسم السلطان لنقيب الجيش ووالي القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالنزول إلى النحاس، والتوجه به إلى قاضي القضاة الشافعي، ليدعي عليه الشرف الأنصاري بمجلس الشرع، كما رسم أن يحتاط على موجوده(٧).

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٢، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٩٢.
(٢) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١١.
(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٠.
(٤) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٥.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤. معتبرًا أن وجود النحاس في السلطة محنة للناس.
(٦) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١١.
(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٢، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣١.

ولله در القائل: "ويل لمن ابتلي بصحبة السلاطين، فإنهم ليس لهم صديق ولا قرابة ولا والد، ولا احترام لأحد، إلا من كانوا محتاجين إليه... فإذا أخذوا حاجتهم منه لم يبق له عندهم مودة، ولم يبق عندهم وفاء ولا حياء، وأكثر أشغالهم رياء"(١).

وبالفعل أخرج النحاس من داره ماشيًا ممسوكًا في قبضة نقيب الجيش؛ وتسامع العوام بذلك فهرعوا إليه للتفرج عليه، وأرادوا الفتك به، ولولا حماية نقيب الجيش لكانوا قتلوه، مع المبالغة في سبه ولعنه(٢)، حتى وصل إلى بيت القاضي فأدخل إلى المدرسة الصاحبية(٣) متحفظًا عليه مع رسل الشرع(٤).

ثم عاد نقيب الجيش ومعه التتائي إلى دار النحاس للحوطة على موجوده، فهجم العامة على المدرسة الصاحبية وتناولوه بالضرب، وحاول نواب القاضي حمايته ودفع العامة، ولكن دون جدوى حتى كسر منبر المدرسة وبعض أبوابها(٥). فأرسل القاضي إلى والي الشرطة لرد الناس بعد أن كادوا يقتلوه. ثم أُحضر النحاس إلى المجلس وادعى عليه التتائي بإذن السلطان بطريق الوكالة(٦). فكان مما ادعى عليه فيه أن كل ما في حوزته

(١) الغزالي: التبر المسبوك، ص٧٠.
(٢) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١١.
(٣) المدرسة الصاحبية: بالقاهرة في سويقة الصاحب كان موضعها دار الوزير يعقوب بن كلس من جملة دار الديباج أنشأها الصحاب صفي الدين بن شكر وجعلها وقفاً على المالكية، وبها تدريس وخزانة كتب، ثم جددت عمارتها وجعل لها منبر، المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٠٥.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٢.
(٥) عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٥.
(٦) عنه انظر ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١١.

من الأملاك والذخائر والأمتعة والجواهر ملك للسلطان؛ كما سمح لكل من له شكوى منه أو دعوى عليه بالتقدم إلى مجلس الشرع ليدعي عليه(١). والناس من ذلك في غاية الفرح والغبطة، حتى النساء وأهل الذمة(٢).

وكان المتتبع لخبايا النحاس وكاشف أسراره هو الشرف الأنصاري(٣)، ولاسيما أنه كان صديقه ويعرف جميع أمواله، حتى أنه لم يدع ما قل ولا جل غالبًا. مع تحسينه للسلطان بأن هذا متاعه وحلالٌ له، إذ لا مال للنحاس أصلاً؛ فعظم الأنصاري في عين السلطان وأخذ في ترقيته، إذ خلع عليه بجميع وظائف النحاس(٤).

هكذا وبنفس طريقة النحاس يقع النحاس. وصدق رب العزة: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾(٥).

وفي اليوم التالي – يوم الجمعة– طلب السلطان إحضار موجود النحاس إليه، وبالفعل أحضر وكان شيئًا كثيرًا ما بين مماليك وخيول وأواني صينية وأمتعة، فضلاً عن الذهب العين وآلات الحرب المزينة بأحسن زينة والكتب النفيسة، حتى الحجج التي له عند الناس والتي قدرت بحوالي ثلاثين ألف دينار؛ فحمل الذهب العين إلى السلطان وبعض الأشياء النفيسة وختم على الباقي ليباع في الأسواق، كما أخرج السلطان جميع متعلقات النحاس

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣١٥.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٣: ١٦٤.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٥.
(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٥، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٢.
(٥) سورة فصلت: أية (٤٦).

من الإقطاعات والحمايات والمستأجرات وغير ذلك[١].

ثم عمل السلطان على التخلص منه فأوكل بمحاكمته للقاضي المالكي، وبالفعل نقل إلى مجلس المالكي لتتفتح في قتله المسالك[٢]، إلا أنه لم ينل السلطان ما كان يرجوه، إذ لم يحكم عليه المالكي ليرد بعض الشهود، واستمر في بيت القاضي إلى أن رسم السلطان بحبسه، فنقل إلى محبسه على حالة سيئة من الذل والصغار، حيث وضع الجنزير في رقبته وأركب حمارًا، والناس واقفة للفرجة عليه بفرحة وابتهاج[٣]. مما أحوج أعداءه للبكاء عليه[٤].

وهكذا ينقلب السلطان وبكل ما أوتي من عزم على النحاس، بل ويبعث إليه مرارًا وتكرارًا يطالبه بالمال حتى رد قائلاً: "قد أخذ السلطان جميع مالي، وما بقي فهو يباع في كل يوم"[٥]. وربما كان ذلك من السلطان لأنه مل من المذكور، ومن تحامله على الناس، أو ربما يرجع لشخصية السلطان نفسه، وما وصف به من سرعة البطش[٦]، وتناقض الأحوال[٧] وربما طمعًا

(١) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٣: ٢٧٤، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٣: ١٦٤، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤، وهذا خلافاً لما ذكره البقاعي عن استمرار محبة السلطان للنحاس حتى بعد نفيه. عنه انظر، إظهار العصر، مج١، ص٢٢٥.

(٣) للمزيد انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٦، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٥، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤، التبر المسبوك، ص٣١٥: ٣١٦، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٣.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٥.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٨.

(٦) الشوكاني: البدر الطالع، ص١٨٤.

(٧) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٢.

منه من مال وممتلكات النحاس.

فلما بلغ النحاس موقف السلطان اشتد خوفه لأنه علم بزوال أمره[١]، وبدأ يعمل الحيلة لتخليص نفسه فلجأ لأحد شيوخ الخانقاة للتوسط له عند السلطان، فرد عليه بأنه: "يمكن التكلم معه في ترك القتل، أما الإقامة في هذا البلد والعود لما كان فيه فلا استبيحه"[٢].

لكن يبدو أن الوساطة لم تتم أو أنها لم تقبل[٣]. إذ يذكر أن السلطان بعث إلى النحاس يطالبه بالأموال ويهدده بالقتل[٤]. وأشيع بالقاهرة أن أبا الخير قد تجنن في سجنه[٥]، ويرى البعض أنه ادعى الجنون لما استبد به الخوف من أن يُكفَّر، وتضرب عنقه[٦]، ففعل ذلك حتى لا تسمع الدعوى عليه[٧].

ولاشك أن هذا من دهائه ومكره للخلاص مما هو فيه؛ وحتى لو كان قد تجنن بالفعل فحق له ذلك وقد قيل: "..... فإنه كان في شيء، ثم صار في شيء، ثم عاد إلى أسفل مما كان، فهو إن كان في مبدأ أمره فقيرًا فهو

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٢.

(٢) عنه انظر السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦، والشيخ هو الكمال بن الهمام الحنفي.

(٣) ويؤكد صاحب الرواية بأنه لم يعلم ما اتفق عنه. السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦. أي أنه لم يعلم ما تم في الأمر.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٧: ١٦٨.

(٥) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٧.

(٦) إذ يذكر أنه كان قد حكم بكفره لسبه لأحد الأشخاص وقوله له "يا كلب يا ابن الكلب" عنه انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٥.

(٧) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٢.

الآن فقيرًا أمواله في أيدي الباعة، مسجونًا ينتظر الحكم بضرب رقبته"[١] نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

تخفيف الحكم على أبي الخير النحاس:

وأثناء انتظار النحاس لضرب رقبته بين لحظة وأخرى، تظهر بادرة أمل، وذلك بعد الحكم بفسق أحد الشهود ضده، فأبطلت الأحكام السابق صدورها بحقه. ثم عقد السلطان مجلسًا بالحوش يضم القضاة الأربعة للنظر في أمر النحاس، وحضر المدعي والشهود[٢]. وبعد مشاورات حكم بحبس المدعي والشهود، وحقن دم النحاس[٣]، لعدم أهلية خصومه وضعف شوكتهم[٤]، ثم نقل إلى مجلس القاضي الشافعي – طبقًا لمذهبه–[٥].

وتولى نقله إلى هناك والي القاهرة الذي شق به الشوارع على هيئة مزرية والجنزير في رقبته وازدحمت الناس لرؤيته[٦]، ولما وصل إلى القاضي الشافعي أمر بإزالة الجنزير من رقبته، وادُعي عليه بدعاوٍ عديدة، اعترف ببعضها وأنكر البعض الآخر، فحكم القاضي بإسلامه، وعذره بالضرب نحو

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٧٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٧.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦.
(٣) للمزيد انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨١: ٢٨٢، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٦: ٣١٧، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٤.
(٤) ويذكر أنهم وصلوا لذلك لعدم مساعدة المقر الجمالي لهم على قتله. عنه انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٨: ١٦٩.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤.
(٦) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٣.

من أربعين عصا، وأمر بالترسيم عليه[١]؛ واستمر مقيمًا عنده[٢].

وهكذا ينجو النحاس بعد إشرافه على الهلاك، وتأكد الجميع من قتله، لدرجة أن العامة والغوغاء كانوا قد تجمعوا عند الصاحبية في المكان الذي يضرب فيه أعناق الناس للفرجة عليه عند ضرب عنقه[٣]. وقد يعتقد البعض أن في هذا خير له، لكن هيهات أن يأتي الخير لمن هو مثل النحاس، والذي يعتبر الموت راحة له، بل هي حكمة الله تعالى ليرى ما يستحق من الذل والهوان طيلة ما يقرب من عشر سنوات.

ولله در القائل:

أرى الدنيا تقول لعاشقيها * حذار حذار توبيخي وفتكي**

ولا يغرركم مني ابتسام * فقولي مضحك والفعل مبكي**[٤].

وكان من الطبيعي أن يسقط بسقوط النحاس كل التابعين له أو المنتمين إليه، فهؤلاء دفعوا ثمن صلتهم به، فمنهم من ادُعي عليه وعُوقب ومنهم من عُزل وصودر، وربما نفي[٥].

نفي أبي الخير النحاس سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م):

وبعد حوالي شهر من الإهانة والذل. وتحديدًا في يوم الجمعة ثامن

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٨: ١٦٩، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤، والترسيم يعني منعه من التصرف بنفسه. عنه انظر، عبدالمنعم ماجد: نظم المماليك، ص١٣٤.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧.

(٣) ابن تغري بريد: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٢، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣١٤.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٣.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧: ٣١٨.

عشرين جمادى الآخرة سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، رسم السلطان بنفي النحاس إلى مدينة طرسوس(١). وأن يقيد ويجنز من خانقاة سرياقوس(٢). وذلك بعد أن حلف أيمانًا مغلظة في مجلس القاضي أنه لم يبق معه شيء من المال غير مبلغ يسير برسم النفقة، وأنه صار فقيرًا لا يملك ما قل ولا جل. ويعقب أحد الكتاب المعاصرين له بقول: "فسبحان المطلع على السرائر"(٣) وكأنه يشك في صدق قول النحاس، وهو بالفعل أهلٌ لذلك.

وفيما آل إليه حال النحاس أنشد أحد معاصريه:

يا من علا من بعد وضع في * قدرًا وأضحى خارجًا عن حده**

ورأى الأكابر كلها من دونه * وذوي المناصب سعدها من**

حتى غدا السلطان مؤتمرًا بما * برزت أوامره من عنده**

لا تعجبن إلى انحطاط بعد ذا * هو مثل لسع النحل عُقبى**

---

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، ذكر بأنها أحدثت سنة نيف وتسعين ومائة لهارون الرشيد. وعليها سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب يشقها نهر البردان. وبها قبر المأمون بن الرشيد، كانت موطنًا للصالحين والزهاد. عنها انظر. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبوعبدالله بن عبدالله الحموي الرومي ت ٦٢٦): معجم البلدان، ج٤، بيروت، ١٩٥٧، ص٢٨: ٢٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٦٩. وخانقاة سرياقوس: خارج القاهرة من شماليها بناحية سرياقوس، أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأشرف بنفسه على البناء وجعل بها مائة خلوة، جانبها مسجد سنة ٧٢٣ثم أزاد فيها. وبعد أن كانت المنطقة مقفرة أصبحت عامرة وبها سوق رائجة. عنها انظر المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٨٤: ٢٨٦.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٤: ٢٨٥.

مـا كنـت إلا فـي منـام وانتبهـت * وجدت تعبير المنـام بضده[١].**

ثم أتى إليه والي القاهرة وأخرجه من بيت القاضي في العُشْر الأول من ليلة السبت تاسع عشرين جمادى الآخرة[٢]، فما طلع النهار إلا وهو بخانقاة سرياقوس[٣] – ذلك خوفًا من اغتياله[٤]– ومنها سافر إلى ما أُمر به[٥].

وبالفعل خرج أبوالخير النحاس من مصر، لكن – على ما يبدو أن– أمله في الرجوع كان لا يزال قائمًا، لذا حاول ألا يبعد عنها بقدر الإمكان؛ فيُذكر أنه في السادس عشر من شهر رجب سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وصل كتاب من نائب غزة[٦]. إلى السلطان يتضمن أن النحاس مريض، وأنه يسأل أن يقيم فيها حتى يبرأ، فلم يُجب إلى ذلك، بل أُمر بالتوجه مباشرة دون البقاء ولو ليوم واحد[٧]. ولعل النحاس هو من ادعى المرض أملاً في الرجوع إلى مصر، أو حتى عدم إكمال المسير، وربما لاستعطاف السلطان ناحيته.

---

(١) السخاوي: الذيل التام على دول الإسلام، مج٢، ص٥٥، وجيز الكلام، مج٢، ص٦٤٨.

(٢) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٤: ٢٨٥، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧.

(٦) غزة مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان، ويذكر أنه توفي بها هاشم عبد مناف جد النبي(ﷺ) وبها قبره، لذلك يقال لها غزة هاشم. وبها ولد الإمام الشافعي. عنها انظر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٠٢، ٢٠٣.

(٧) عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٨٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٧٠، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧.

خاصة وأنه ذكر أن السلطان – قبلها مباشرة– كان قد أرسل إلى غزة لأخذ جميع ما مع النحاس، وذلك بعد أن بلغه أنه "قد يحمل في مركبه جميع حواشيه"(١).

فأخرج إلى طرسوس للحبس بها، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أرسل السلطان إلى نائب طرسوس يأمره بضرب النحاس خمسمائة عصا على سائر جسده ضربًا مبرحًا، وأخذ جميع ما معه من المال والجواري(٢). ففعل النائب، كما قام بعصر النحاس(٣)، فلم يجد معه إلا مبلغًا يسيرًا ومملوكًا وجارية وبعض قماش صوف ثم أعاده إلى الحبس(٤).

ليس هذا فحسب بل ذكر أن السلطان كان يُرسل بين الحين والآخر الأمر بضربه وإهانته(٥)، ويزيد الأمر كلما أشاع من يحبه أو يبغضه بأمر العفو عنه واحتمال مجيئه إلى القاهرة، حتى قيل أن جملة ما ضرب في مدة حبسه نحو الألف عصاه تخمينًا على فترات متفرقة(٦). وأحيانًا كان يضرب

---

(١) ابن تغري بريد: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣٠١، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٧٤، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٢٠.

(٣) العصر هو أن يُعصر الشخص في الأركاب، وذلك في آلة خاصة اسمها المعصرة، وهي مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما، تشدان شداً وثيقاً على المعاقب، وربما وصل الأمر إلى حد الموت، عنه انظر، عبدالمنعم ماجد: نظم المماليك، ص١٣٣: ١٣٤.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣٠١، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٧٨، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤، التبر المسبوك، ص٣٤٩.

(٦) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٨، وذكر نفس المؤرخ في موضع آخر أنها ثمانمائة عصاه، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤.

ويقال له "السلطان بعث يتفقدك بهذا"(١). ثم يُعاد إلى محبسه في ضيق عظيم(٢)، وربما نقل من مكان لآخر بهدف ذله وإهانته(٣). فسبحان المعز المذل. ولله در القائل:

يا من علا وغلوه * أعجوبة بين البشر**

غلط الزمان برقع قد * رك ثم حطك واعتذر(٤).**

ولعل من سائل. لماذا يتصرف السلطان معه هكذا؟! وينقلب الموقف بعد الانقياد له والائتمار بأمره. بالتأكيد ليس فقط الرغبة في ماله، لأن الظاهر أن ماله قد نفذ وليس وشاية الكارهين له، لأنه قد بَعُد بالفعل. بل يمكن إرجاع ذلك إلى ما وُصف به السلطان وأكد عليه الكتاب بل وعدوه من عيوبه وهو "سرعة الانحراف والانتقال والبهدلة لكثير من العلماء بأشياء لم تقع لملك بعده"(٥) حتى مع من كان ليس عنده أفضل منه وهو النحاس(٦). وربما حبه للشر والإساءة إلى أصحابه فضلاً عن تناقض أموره، والتي جعلته يتصرف مع النحاس هكذا، ورغم ذلك قيل: "كان ميل السلطان إليه باقياً ولا يزداد مع طول الزمان إلا كثرة"(٧). حقًا "ويلٌ لمن ابُتلى بصحبة

(١) ظنًا أنه هو من يشيع بالقاهرة عن طريق أصدقائه أمر العفو عنه. ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٣٧.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٨، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٤: ٣٣٥، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٤.

(٥) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٣، ص٣٨٢.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٢.

(٧) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٥، ٣٠٣.

الملوك...."[١].

عودة أبي الخير الأولى إلى القاهرة (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م):

ومن الغريب أنه مع كل ما حدث وأمل النحاس في الرجوع إلى القاهرة لم ينقطع، وحبه للنفوذ لم ينته، لذا نراه يحاول بكل ما أوتي من قوة – دون حساب للعواقب– أن يرجع إلى مصر، وبالفعل في العشر الأخير من شهر رجب سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م أشيع بظهور النحاس في القاهرة وتحدث البعض برؤيته، وأنكر البعض أن يكون هو معتقدًا أنه شخص يشبهه[٢]؛ وأصبح الناس ما بين مصدق ومكذب[٣]. ثم ما لبث أن تبين النحاس دون علم أحد من رجال الدولة حتى كاتب السر[٤].

ويذكر أن الدويدار هو من حسن للسلطان استقدام النحاس نكاية في ناظر الخاص، وأن السلطان وافق بالفعل لأنه كان يرغب في ذلك، ومن ثم أحضر الموقع سراً[٥]، وكتب مرسوماً بذلك إلى نائب طرسوس، وأُمر بتجهيز النحاس على وجه السرعة، وأُعطي المرسوم لهجان وأُمر بالإسراع. لكن ندم السلطان بعد ذلك خوفاً من الفتنة[٦]، ولعل أعداء النحاس هم من أقنعوا

(١) الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص٧٠.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٤، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٦.
(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٨.
(٥) ويذكر أن الموقع حُلف على الكتمان بالطلاق. البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٥.
(٦) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٦.

السلطان بخطأ ذلك[١]؛ فأرسل مرسوماً آخر على يد هجان بنسخ الأول. فلما علم الراغبين في إحضار النحاس أرسلوا إليه بالخروج من طرسوس على وجه السرعة بمجرد وصول المرسوم الأول، فلماذا وصل المرسوم أسرع النحاس في الخروج وطار في الآفاق[٢]، مبتعداً عن الطريق المألوفة، متنكراً في زي أعجمي من شيوخ الزوايا[٣]. ونظراً لسرية وسرعة هذه الإجراءات نجد من المؤرخين المعاصرين من ينكر صلة السلطان بقدوم النحاس[٤]؛ وذلك طبقاً لما أعلنه السلطان نفسه، بل وأظهر غضبه الشديد عندما ذكر النحاس ذلك[٥].

على أية حال فقد وصل النحاس إلى القاهرة، وأمر السلطان أن ينزل عند الخليفة[٦]، فظن النحاس أن القصد هو شفاعة الخليفة فيه حتى لا يعترض أحد[٧]، ولكن المفاجأة أن السلطان بعث للخليفة بعدم

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٧٠، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٦٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٦.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠؛ ويذكر أنه التقى بالنحاس وأنه هو من شرح له ذلك بالتفصيل.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٥. وإن كان يعود ويثبته في موضع آخر، ويذكر أن أعداء النحاس هم من أفسدوا الأمر. عنه انظر، حوادث الدهور، ج٢، ص٣٧٠، النجوم الزاهرة، ج١٥، ١٨٥.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠.

(٦) وهو آنذاك القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل على الله (٨٥٥- ٨٥٩هـ) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٠٠.

(٧) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٦: ٢٢٧.

الطلوع معه إلى القلعة[١]، فأرسل معه بابن أخيه شفيعاً[٢]. ولما صعد الشفيع إلى السلطان أحسن استقباله، ثم دخل بعده أبوالخير النحاس وقبّل رجل السلطان فلم يلتفت إليه بل نهره وأوسعه سبًا ولعنًا وتوبيخًا، وأخذ يعدد أفعاله القبيحة أيام عزه[٣]، ثم أمر بحبسه بالبرج من قلعة الجبل، بعد أن اعتذر لابن أخي الخليفة قائلاً كنت أريد أن أوسطه [٤] فلأجل الخليفة عفوت عنه، ثم أنعم على الشافع بمائة دينار[٥]. وزاد البعض أنه قال له: "قل لأمير المؤمنين قبلنا شفاعته فيه من القتل والإتلاف"[٦]. وإنفض المجلس على ذلك، وكان في يوم الجمعة تاسع شعبان ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م[٧].

وفي الغد جلس السلطان بالحوش وأحضر النحاس في ملأ من الناس، وأمر بضربه ضربًا مُبرحًا، فضرب أكثر من خمسمائة عصى[٨]، وقيل ما يقارب الألف عصى أو ما دونها – تقريبًا– على رجليه وسائر بدنه؛

(١) عنه انظر، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.
(٢) واسمه سيدي عبدالعزيز بن سيدي يعقوب، للمزيد انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٩، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٦٤: ٣٦٥. وقيل أن النحاس هو من لجأ للخليفة خوفاً من رد فعل السلطان. عنه انظر، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، نفس الجزء والصفحة.
(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٨٩.
(٤) التوسيط: هو ضرب المذنب بواسطة السيف بقوة قرب وسطه أسفل السرة، فينقسم إلى نصفين. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٠٩.
(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٩، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٨٩.
(٦) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٦٥.
(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٥.
(٨) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٩.

ثم أمر بعودته إلى محبسه[١]، فاستمر به أياماً حتى أُخرج يوم الأربعاء رابع عشر شعبان، على حالة سيئة، بصحبة أعوان الوالي[٢]. ومُوكلُ به جماعة من العربان، شقوا به القاهرة إلى أن أُخرج، ونودي عليه "هذا جزاء من يكذب على الملوك ويأكل أموال الأوقاف" ونحو ذلك، ورسم السلطان أن يُفعل به ذلك في كل بلد يمر بها إلى أن يصل إلى منفاه بالشام، ليحبس بقلعة الصبيبة[٣].

وهكذا يخرج النحاس ثانيةً، وينقطع رجاؤه في التنعم بقرب السلطان، لكن لا يمكن المرور على هذه الواقعة دون مناقشة موقف السلطان جقمق، لماذا يستقدمه ويتصرف معه هكذا؟ وإذا كان بالفعل لا يزال يرغب في قربه منه فلماذا يعامله هكذا؟! ويمكن الرد على ذلك بأنه ربما تواصل النحاس مع السلطان عن طريق أحد المقربين منه ووعده بمال، ويؤيد ذلك ما ذكر أن القاضي أبوعبدالله التركي[٤] كان قد التزم عنه بمائة ألف دينار أو أكثر. ولما

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٦٩، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٥.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠.
(٣) عنه انظر، ابن تغري بردي: حودث الدهور، ج٢، ص٣٧٠، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٦، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٣٢: ٢٣٣، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٣٦٥. والصبيبة: قلعة حصينة في مدينة تحمل نفس الاسم وهي مدينة لطيفة يزرع بها الأرز ثم يجلب إلى دمشق وهي من معاملة دمشق. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٦.
(٤) أبوعبدالله التريكي محمد بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن محمد البيدموري التونسي، وقيل التُّرِيْكي ممن تقدم في الفقه، اشتهر بالديار المصرية وتولى قضاء دمشق، بل كان يلي قضاء مصر لولا انتمائه للنحاس توفي سنة ٨٦٢هـ وقد جاوز السبعين. عنه انظر. السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٨٦، وجيز الكلام، ص١١٠٦، رقم (٢٣١٩).

علم أعداء المذكور تصدوا للأمر بتغيير رأي السلطان، بل وبذل أضعاف ما بذل النحاس، حتى نجحوا فيما سعوا إليه، من التغير على النحاس وإفساد أمره(١).

ويظن ابن تغري بردي أن هذا هو الأقوى معقبًا بقوله: "ولله در القائل:

بعثت في حاجتي رسولاً * يكني أبا درهم فتمت"(٢).**

وربما يتعلق الأمر بشخصية الظاهر نفسه، وما وصف به من التناقض والشر والجبروت وعشق الأذى، خاصة في أواخر عمره(٣)، على أية حال لم يَجْنِ النحاس من محاولته هذه إلا مزيداً من الإهانة والضرب، ثم عاد إلى ما كان وأكثر. ولا يلومن إلا نفسه.

أبوالخير النحاس في بلاد الشام:

وبعد هذه الأحداث بعدة أشهر(٤) تولى الأشرف إينال (٨٥٧-

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٧٠، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٥.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٧٠، وتجدر الإشارة إلى أن أبوعبدالله التركي طولب بالمال بعد ذلك وأخرج إلى مجلس القضاء على هيئة مشينة، وادعى عليه، ثم آل أمره إلى ضربه ضربًا مبرحاً ونفيه إلى الشام، مع فرحة الناس بذلك لصلته بالنحاس: عنه انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٣٧١: ٣٧٢، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٨٦: ١٨٧، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٢٢٩: ٢٣٢، ٢٣٥: ٢٤١، السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٩٠: ٣٩١.

(٣) عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٠٢: ٣٠٣.

(٤) وذلك بعد وفاة الظاهر جقمق في صفر سنة ٨٥٧هـ، وكان قد عهد – في حياته – لابنه بالسلطنة بعد أن أرهقه المرض. ولما توفي لم تستمر سلطنة ابنه المنصور أكثر من بضع وأربعين يومًا إذ خُلع وتولى الأشرف إينال عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٢٩: ٣٤٠، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٣: ٣٤٦، الشوكاني: البدر الطالع، ١٨٤: ١٨٥، أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، =

٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م)[١] حكم البلاد، فتبدل الحال بأبي الخير، إذ يذكر أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، شفع بعض الأمراء في إطلاقه من السجن، فرسم بذلك على أن يستمر بدمشق[٢]؛ ورغم كل ما حدث له فإنه لما خرج من محبسه عظمه أكابر الشاميين وأهدوا له خوفًا من بطشه، فصار يركب الخيول المسومة، وانضم إليه بعض المفسدين، ليس هذا فحسب بل أرسل إلى السلطان الأشرف إينال كتباً تفيد أنه إن أقدمه إلى مصر وقربه ملأ الخزائن أموالاً[٣]. ولما بلغ السلطان الخبر أخذ في التفكير في الأمر، وصرح بذلك لناظر الخاص[٤]، والذي عمل بكل وسعه لإقناع السلطان بفساد النحاس وسياسته[٥]، وساعده في ذلك كثير من مباشري

=

ج٢، القاهرة، د. ت، ص٧٧٣، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي، مج١، ص٥٠.

(١) الأشرف إينال هو أبوالنصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري، كان مملوكًا ورقي إلى أن بويع بالسلطنة في ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة تملك مدة ثمان سنين وشهرين، ولما مرض بايع ابنه بالسلطنة كان سيوسًا شجاعًا مقدامًا عارفًا بالحروب. توفي سنة ٨٦٥. عنه انظر، البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٣٦: ٣٣٨، مج٣، ص٢١٤: ٢١٦، السخاوي: وجيز الكلام، مج٢، ص٧٣٦: ٧٣٧، ابن العماد: شذرات الذهب، مج٩، ص٤٤٩، أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر، ج٢، ص٧٧٣: ٧٧٤.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٥٠.

(٣) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٥٧.

(٤) وذلك رغبة منه أن يزيد دخل الخزانة ويرجع إلى ما كان عليه أيام الظاهر. البقاعي، إظهار العصر، مج١، ص٣٥٨.

(٥) موضحًا له مدى فساد النحاس وما اقترف من مظالم أيام سيطرته، مذكرًا السلطان برأيه السابق في النحاس، حيث قال عنه أثناء دولة الظاهر جقمق عن النحاس وما يفعله: "هذا الذي يفعله هذا الرجل لا يجر إلى خير" كما بين له بالمستندات مدى

=

الدولة الكارهين لعودة أبي الخير، ومازالوا بالسلطان حتى أصدر مرسومًا إلى الشام، يأمر النحاس بلزوم داره، وعدم التحدث فيما لا يعنيه، وإلا أعيد إلى السجن[١]. ولم يكتف أعداء النحاس بذلك، بل أقنعوا السلطان بخطورته حتى رسم بإعادته إلى السجن في جمادى الآخرة سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣هـ[٢]. وفي شهر رجب من نفس العام جاءت كتب النحاس تسأل إطلاق سراحه، فشفع فيه بعض الأمراء حتى رسم السلطان بإطلاقه[٣]. فأطلق في شهر شعبان من نفس العام، وسمح له بالركوب والنزول والتوجه حيث شاء[٤].

ورغم ما مر بالنحاس من الإهانة والضرب والحبس إلا أنه كما هو، إذ يذكر أنه عندما أُطلق أخذ يخوف كثيرًا من أعيان البلاد الشامية، بأن السلطان وعده بأن يقدمه عليه وعين له بعض المناصب، ومن ثم طلب الأموال من الأعيان، بحجة أنه يريد تقديمها إلى السلطان. وبالفعل جمعت له الأموال – خوفًا منه– ولما علم السلطان بذلك أرسل بالقبض عليه وسجنه في قلعة المرقب[٥] وأخذ جميع ما معه، وكان ذلك في المحرم سنة (٨٥٨هـ/

=

خطأ وجهة نظره في كون النحاس هو سبب جلب الأموال أيام الظاهر. عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٥٧: ٣٥٨.

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٥٧: ٣٥٨.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٧٣.

(٣) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٩٣.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٤٤٨.

(٥) قلعة المرقب: من قلاع طرابلس ببلاد الشام، وهي إحدى قلاع الدعوة التي كانت بيد الإسماعيلية. عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٢، ص٤٦٢: ٤٦٣، ج١٤، ص٥٠.

١٤٥٤م)[١]، ثم شُفع فيه فرسم السلطان بإطلاقه إلى حال سبيله[٢]، فتوجه إلى دمشق وأقام بها.

وحدث في شهر ربيع الأول من نفس السنة أن سافر دويدار السلطان إلى دمشق لأمر من الأمور، فخشي ناظر الخاص من اجتماع الدويدار بالنحاس، واحتمال إقناعه بالتوسط له عند السلطان فما كان منه إلا أن استصدر من السلطان مرسومًا بنفي النحاس إلى حماه وأرسل ذلك على يد ساعٍ، وأمره بالتعجيل، وبمجرد الوصول يتم إخراج النحاس دون التأخر ولو لساعة واحدة، وبالفعل أخرج قبل وصول الدويدار بيوم واحد[٣]. ولما أنهى المبعوث مهمته في دمشق عزم التوجه إلى حلب، فخاف ناظر الخاص من دخوله إلى حماه وهو في طريقه إلى حلب؛ فاستصدر مرسومًا آخرًا بنفي النحاس إلى طرابلس، وكان ذلك أواخر الشهر ذاته[٤].

ويبدو أن ذلك كله لم يكن ليقنع ناظر الخاص، إذ لم يهدأ له بال حتى رسم السلطان بحبس النحاس في قلعة المرقب ثانية في شهر رمضان سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م[٥]. واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي ناظر الخاص جمال الدين يوسف سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م، والذي كان يعتمد عليه

---

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص٩.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٤٨٤، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥٢.

(٣) البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص٨٣.

(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص٩٠، وفي هذا يذكر ابن تغري بردي أنه خرج من دمشق إلى طرابلس مباشرة، وأنه وصلها في أواخر الشهر. حوادث الدهور، ج٢، ص٤٩٠، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٥، ج٢، ص٤١٥، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥٢.

(٥) البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص١٣٨.

السلطان في تدبير دولته. وفي الوقت نفسه كان يقف حجر عثره أمام مجيء النحاس، أو حتى تركه طليقًا حرًا. فلما توفي وقع السلطان في حيرة من أمره فيمن يقوم مقامه؛ وبالفعل عرض المنصب على كثيرين لكنهم رفضوا، مما أعطى الفرصة لرؤوس النفاق للظهور وإقناع السلطان بالنحاس فأجابهم وكتب المراسيم بذلك(١).

عودة النحاس الثانية إلى القاهرة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م):

وتبتسم الدنيا ثانية لأبي الخير النحاس، إذ يصدر مرسوم سلطاني في ربيع الآخر سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م بحضوره إلى القاهرة، لكن لم يتم الأمر(٢) إذ يذكر أنه أبطل(٣)، وقيل رُد القاصد غير مرة(٤). وربما يرجع ذلك لسعي الكارهين لعودته أو الخائفين منه. لكن في شهر رجب من نفس العام صدر الأمر حقيقة للنحاس بالحضور إلى القاهرة(٥). ويذكر أن هناك من حاول إرجاع السلطان عن القرار إلا أنه لم يستجب لدرجة أن قيل: "فُعلم أن في رأسه صوتًا لابد أن يُغنيِّه فلم يُعارض في ذلك"، وكتب بالفعل إلى نائب طرابلس بإحضاره، وعين له من يأتي به(٦).

وكان حضوره في يوم الثلاثاء الثاني من شهر رمضان من نفس

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٢، ص٣٩٨.
(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٤١.
(٣) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٥٤.
(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٤١.
(٥) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٥٩.
(٦) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٥٩.

العام، إذ طلع إلى القلعة فرحب به السلطان، وخلع عليه بخلعة بيضاء[١]؛ ونزل إلى بيت أحد القضاة حتى يُهيأ له منزل[٢]، فهرع الناس إليه للسلام[٣]؛ ظنًا منهم عودته إلى ما كان وربما أعظم، وكان آنذاك مريضًا[٤]. والسؤال الآن ما الذي غيّر الحال هكذا؟! حتى يُستقدم ويخلع عليه بل وسيلي بعض المناصب عن قريب!.

ويمكن الرد على ذلك بعدة أسباب تفسر هذا التغيير منها:

- خلو الساحة السياسية من الشخصيات التي كانت تكيد له وتسعى في إبعاده، بوفاة ناظر الخاص، وعزل الشرف الأنصاري[٥].
- وصول أحد أتباع النحاس لولاية القاهرة، وهو على بن إسكندر[٦]؛ الذي ولاه الحسبة أيام عزه والذي لا يستبعد أن يكون هو وأمثاله من حسنوا للسلطان إينال أمر استقدام النحاس، مؤكدين قدرته على القيام بأمر الدولة والحل محل ناظر الخاص الذي توفي، وقبل السلطان بالفعل طمعًا فيما يمكن أن يجمعه له المذكور من مال، خاصة وأن النحاس نفسه كان قد أرسل سابقًا للسلطان يعده إن هو أقدمه وقربه ملأ الخزائن

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٤، ويذكر ابن تغري بردي أنه خلع عليه بكاملية بمقلب سمور، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٦.
(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٤.
(٣) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٦٢.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.
(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.
(٦) ويذكر أنه خلع عليه مقابل مبلغ أربعمائة ألف دينار. ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص٤٥٥.

بالأموال[١].

- وربما يكون ذلك طمعًا من السلطان فيما يمكن أن يكون بحوزة النحاس نفسه من الأموال، وأن النحاس نفسه هو من طلب الرجوع مقابل بذل المال. ويؤكد ذلك ما ذكر سابقًا من عرضه الأمر على السلطان وإغراء السلطان بالمال مقابل استقدامه. ويؤيده وصف السخاوي لحال النحاس عند قدومه إذ قال: "..... وبالوفاء بما ألزم به نفسه مطلوب"[٢]. ولا يخفى أن تقديم المال والعطايا للسلاطين آنذاك كان السبيل الأمثل والأسرع للوصول للمطلوب، خاصة وأن الحالة الاقتصادية في عهد الأشرف إينال كانت قد وصلت إلى أسوأ ما يكون[٣].

ويؤكد ذلك أنه بعد الخلع عليه بعدة أيام[٤] طلع إلى القلعة في جمع كبير فأهدى إلى بعض رجال السلطان[٥]. ثم دخل على السلطان وقدم له تقدمة هائلة[٦]. ظنًا منه أن عزة القديم سيعود[٧]. وتظهر هذه الهدية أن النحاس كان يمتلك ثروة لا بأس بها آنذاك، ويؤيد ذلك ما ذكره السخاوي من

---

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج١، ص٣٥٧.

(٢) الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

(٣) للمزيد عن حالة الفقر التي عانت منها البلاد آنذاك، ومدى ظلم واعتداء الجلبان على الناس، وتطاولهم على السلطان ومطالباتهم بالمال باستمرار. انظر. السير وليم موير. دولة المماليك، ص١٥٩: ١٦١.

(٤) يجعلها البقاعي يومين فقط. إظهار العصر، مج٣، ص٦٤، ويُذكر أنها كانت سبعة أيام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦ إلى ١٠٧، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٦٢.

(٥) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٤.

(٦) وهي عبارة عن اثنين وسبعين فرسًا وثلاثين بغلاً. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٧، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٦٢.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١.

أنه لقيه في طرابلس أثناء رحلته إليها، وأنه بالغ في الإكرام والاحترام له، وأرسل إليه بدراهم لها وقع، وأن السخاوي امتنع عن قبولها[١]. ومعنى ذلك أنه كان على حال لا بأس بها من الغنى. وربما كانت تلك الأموال من الأسباب التي ساعدته للوصول إلي السلطة.

وزاد أمل النحاس في العودة لما كان حسنُ معاملة السلطان إينال له، والذي جعل في خدمته أكثر من مائة من الجند، بل وسمح له بالطلوع إلى القلعة بعد نزول المباشرين والبقاء عنده مدة طويلة، كما كان الحال أيام الظاهر، وزادت مكانته لدرجة توقف أحوال مباشري الدولة، حتى أصبح كل منهم خائف على نفسه ووظيفته[٢]، خاصة بعد الخلع عليه بعدة وظائف.

الوظائف التى تولاها النحاس:

في يوم الاثنين خامس عشر شهر رمضان سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م خلع على أبي الخير النحاس بنظر الذخيرة[٣] السلطانية، ونظر بيت المال[٤]، ونظر الخاص[٥]، ووظائف أخرى[٦]، كما جمعت له أموال كانت مخصصة للوزير والاستدار، ومقدارها خمسمائة دينار، ثم نزل إلى بيته[٧].

---

(١) الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٤: ٦٥.

(٣) نظر الذخيرة: يقوم صاحبها بالنظر في ديوان الذخيرة، وهو من أجل الدواوين، يجمع به أموال الذخيرة من جهات متعددة، ويساعده مباشرون عدة. عنه انظر. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١١٠.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٧.

(٥) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٥، وفيه دليل على اعتقاد السلطان أن النحاس يستطيع القيام بما كان في يد الجمالي من قبل وذلك حسب ما أقنعه البعض.

(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٥.

(٧) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٥.

وهكذا يرتفع أبوالخير النحاس ثانية ويتقدم على جميع المباشرين.

ورغم ذلك لم يقنع النحاس بما تحت يده، إذ به يكتب للسلطان يطلب منه نظر الكسوة، وما كان بيده أيام الظاهر من خطابه جامع عمرو[١] وأعمال أخرى منها ما هو في مصر ومنها ما يخص بلاد الشام. والغريب هو استجابة السلطان على الفور وإسناده ما طلب من الأعمال[٢].

هذا في حين أن النحاس نفسه لم يكن قادرًا على القيام ببعض الأعمال مثل خطابة جامع عمرو، إذ يذكر أنه سأل أكثر من شخص من أصدقائه القيام بالخطابة إلا أنهم رفضوا، فخطب من كانت تحت يده سابقاً (الشرف المناوي)[٣]، فلما علم النحاس لم يهدأ له بال وقرر التخلص من الشرف المناوي، فكلم السلطان في شأنه مدعيًا أن الناس كرهوا نضبه في وظائف الدين[٤].

وعليه فالنحاس لم يتغير فهو كما هو سابقًا يظلم ويجور[٥] – رغم كل ما حدث له– دون مراعاة لأي شيء حتى لمن له عليه الفضل من قبل؛ لكن الآن لم يجد من يستمع وينقاد له. إذ كذبه السلطان في دعواه على

---

(١) تجدر الإشارة أنها كانت بيد الشرف المناوي قاضي القضاة الشافعي أيام الظاهر جقمق، والذي كان سببًا في حقن دم النحاس أيام نكبته.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٥.

(٣) الشرف المناوي: يحيى بن محمد بن محمد بن أحمد بن مخلوف المناوي القاهري الشافعي، ولد سنة ٧٩٨هـ نشأ بالقاهرة فحفظ القرآن وتفقه وأفتى ودرس وتولى القضاء وحمدت سيرته، وتوفي سنة ٨٧١هـ فصلى عليه السلطان ودفن في مشهد مهيب. عنه انظر، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص١٠٢: ١٠٣، رقم (٢٦٤٥)، السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٢٥٤: ٢٥٧، رقم (١٠٣٣).

(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٥.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

المناوي، بل وأخذ الوظائف التي طلبها وأسندت إليه، ورد كل عمل إلى صاحبه وأخذ منه العهد المكتوب بذلك وحُرِق، وأعلن السلطان أنه تصرف معه هكذا لأنه كذب عليه(١). وكان ذلك في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، بمعنى أن الوظائف التي طلبها لم تستمر بيده سوى أسبوعًا واحدًا، وأنه هو من سعى إلى الخراب بدعواه الباطلة على مظلوم(٢).

ورغم ذلك لم يهدأ النحاس، إذ يذكر أنه في الخامس والعشرين من نفس الشهر يتوجه إلى السلطان ويشتكي ضعف كلمته، ومدافعة المباشرين له، وأخذ يترجى السلطان في إرجاع ما أخذ منه، لكن لم يُجب إلى شيء. إلا أنه لا يكل ولا يمل من المطالبة إلى أن نجح في انتزاع خطابة جامع عمرو من المناوي. وذلك رغم عدم قدرته على الخطابة(٣) ورغم رفض أصدقائه القيام مقامه فيها، فاضطر إلى إبقاء نائب المناوي عليها(٤).

وفي الشهر التالي مباشرة عزله السلطان عن الذخيرة ثم عن باقي الوظائف التي تحت يده وردها إلى ما كانت عليه قبل قدومه؛ حتى ما كان تحت يده من إقطاع نزع منه وأضيف إلى الذخيرة(٥). وذلك بعد ضرب

---

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٥.

(٢) ومن الغريب أنه كان بمجرد العلم بتوليه عمل ينقص النيل، وبمجرد العلم بعزله يزيد النيل فتشاءم الناس منه أكثر وزاد كرههم له. عنه انظر: البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٤: ٦٦، ٧٣.

(٣) ربما رجع ذلك لمرضه وربما لقلة علمه وربما لخوفه من كره الناس له.

(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٦.

(٥) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٣: ٩٤. ويذكر أن ابن الأهناسي الوزير آنذاك هو السبب في الدس له عند السلطان حتى نزع عنه كل الأعمال وقد نقل عنه في حق النحاس أنه قال: "أنا سفلة وهذا سفلة فأنا له دعوني وإياه وانظروا" عن العلاقة بينهما انظر نفس المصدر والجزء، ص٦٨، ٩٣.

الجلبان له كما سيأتي. ومن ثم يمكن القول أنه "لم يتحرك له سعد ولا نتج له أمر، بل صار "كلما قام أقعده الدهر وكلما أراد القوة ضعف، وزاد به القهر"[١]. "فما بلغ ولا كاد"[٢] وعليه فقد "خاب ظنه وظن جماعته"[٣].

ضرب الجلبان[٤] لأبي الخير النحاس:

وفي يوم الخميس ثالث شوال طلع أبوالخير النحاس إلى القلعة للاجتماع بالسلطان، وقبل وصوله إليها، خرج عليه مجموع من المماليك الأجلاب وضربوه ضربًا مبرحًا، حتى أوقعوه على الأرض وداسوه، واستمروا في ضربه حتى ظُن أنه مات. فتخلى عنه أعوانه وهربوا، حتى من تقدم من النبلاء للدفاع عنه ناله ما ناله من الضرب دون جدوى، ولم يتركوه حتى ظنوا أنه مات، فحمل مغشياً عليه إلى الطباق، ولما فاق حُمل إلى بيته وهو مجروح في مواضع كثيرة من جسده فزاد به الوهن والضعف[٥]. ومع ذلك

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٥.

(٢) السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص١٤٨.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

(٤) الجلبان أو الأجلاب ويقصد بهم مماليك السلاطين الذين هم في دست الحكم، وكان يتم شراءهم أطفالاً ثم يربوا على الإسلام والفروسية، ولكن في النصف الثاني من عصر المماليك الجراكسة كان يتم استقدامهم بالغين، وأحياناً يكونون من أقارب السلطان وذويه، ثم يتولون المناصب المهمة، وقد زاد طغيان هؤلاء وظلمهم للدولة والرعية، حتى أنهم تجرءوا على السلاطين. للمزيد انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٤٩: ١٥٠، ج٧، ص٩٣، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١١٦، السيد الباز العريني: المماليك، القاهرة، ١٩٦٧، ص٥٤، ٧٠، ٧٨.

(٥) عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٧: ٦٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٨، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦، ج٢، ص٦٣.

كان يظهر الجلد ويخفي الحزن، ويقول: "إن هذه عادتهم لم يخرجوا به عن العادة، ونحو ذلك وهو يضحك ويظهر السرور في حين أنه عاجز حتى عن الجلوس"(١).

ويذكر أن الوزير هو من دفع الأجلاب لضرب النحاس، عندما ألقى في روعهم أن مقراراتهم متأخرة بسبب رفض النحاس دفع المال المقرر لذلك. فما كان منهم إلا أن فعلوا ما فعلوا(٢). وأنه هو أيضاً السبب في قلب السلطان على النحاس وبغضه إياه على هذا النحو(٣).

محاسبة أبي الخير النحاس:

وزاد حال أبي الخير النحاس سوءًا عندما أمر السلطان بمحاسبته، ولما قيل له: أنه مريض، رد قائلاً: "يحضر على حمَّال" وبالفعل في ثالث عشر شوال سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م حُمل على قفص حَّمال للمحاسبة – بعد أن عجز عن الركوب من شدة المرض– وأحضر إلى كاتب السر للمحاسبة(٤). فحوسب وأخذت منه الأموال، وبقي عليه أحد عشر ألف دينار، ثم رُد إلى بيته محمولاً على قفص. وأعطى مهلة

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٨.
(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٦٨.
(٣) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٣، والوزير هو بن الأهناسي الذي ترقى في المناصب إلى أن وصل للوزارة وعزل عنها غير مرة ثم يعود إليها، كما صودر أكثر من مرة، ثم نفي إلى مكة المكرمة وبها توفي سنة ٨٦٨هـ. عنه انظر، السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٩٦، رقم (٩٩٥).
(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥.

ثلاثة أيام ليفي بما عليه[١].

وهكذا سعى النحاس للرفعة والسلطة، لكن حطه الله على وجه السرعة، فما زاده المجيء إلا إهانة، وما زادته السلطة إلى مصادرة، وعقب ابن تغري بردي على حال النحاس آنذاك بقوله: "تأديبًا من الله عز وجل لتعلم أن الله على كل شيء قدير"[٢].

وينسب إلى النحاس أنه أنشد:

أجـــج النحـــاس نـــارًا * أحرقـت فلـس ابـن أقبـرس**[٣].

فلـــذا صـــار ينـــادي * أحـرق النحـاس ذا الفلـس**[٤].

وفاة أبي الخير النحاس:

توفي النحاس في يوم الجمعة العشرين من المحرم سنة ٨٦٤هـ/

(١) ويذكر البقاعي أن حالته هذه جعلت أخوه يتحدث بكلام فيه غلظة فرُسم عليه. إظهار العصر، مج٣، ص٩٤. وتجدر الإشارة أن هذه هي المرة الوحيدة التي أشير فيها إلى شخص من عائلة أبي الخير النحاس أو حتى أقاربه.

(٢) النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١.

(٣) ابن أقبرس: العلاء أبوالحسن علي بن محمد بن أقبرس القاهري الشافعي، ممن اشتغل بالأدب، وغلب عليه الهجاء، رقاه الظاهر للحسبة ونظر الأوقاف وغيرها وأثرى ثم امتحن ولزم بيته مع علو الهمة والإقدام (ت٨٦٢هـ) عنه انظر السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص١٢٨.

(٤) ذكر السخاوي أنه أنشد ذلك في أواخر أيامه، حيث كثر اجتماعه به آنذاك. الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥: ٦٦.

١٤٥٩م[١] عن نيف وأربعين عامًا[٢]، وقيل خمسون[٣]. وذلك بعد أن أجهده التعب والمرض، حتى قيل أنه اجتمع به أمراض مختلفة حتى صار في غاية النحافة، بعد أن كان ضخمًا، فأصبح وكأن يديه خيطان أو خطان. واعتبر أن سبب وفاته السُلُّ[٤]. وذكر أنه الطاعون الذي حل آنذاك[٥].

وأياً كان سبب موته فالعبرة فيما حدث له بعد موته، إذ كان عقاب الله أن حرمه من أن يكفن من ماله؛ إذ لم يتمكن وارثه من كفن له مما في حوزته، حتى تصدق أحد الأشخاص عليه بالكفن، وذلك بعد أن عفن، وصلى عليه في جامع الحاكم، فلم يهتم به أحد، حتى أنه مشي في جنازته نحو سبعة أشخاص بالتقدير ودفن بالصحراء. وبكى العوام لأجل قلة من تبعه، لما رأى من العز والجاه[٦]. وقيل عنه: "فلقد كان جبلة شرٍّ مع ما قاسى في زمانه من الأنكاد التي تُهذب أعتى الناس إذا حصل له يسير عناية"[٧]. ويذكر أنه ظل على قبحه وفحشه حتى في أواخر حياته، وعنه

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٨١، المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٥، البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٨، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٧٠.

(٢) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٨.

(٣) السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص١٤٨.

(٤) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٨: ٩٩.

(٥) ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج٢، ص٨٢٨، رقم (٢٧٨٥).

(٦) عنه انظر البقاعي: إظهار العصر، ص٩٨: ١٠٠، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٦٥: ٦٦.

(٧) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٩.

قال البقاعي: "أخبرني من دخل عليه قبل موته بأربعة أيام أنه كان لا يستطيع كلامه إلا بالإشارة. وإن حصل نطق فهو في غاية الخفاء، حتى يشير إلى أحد أتباعه بشيء فيخالف غرضه. فحينئذ يشرع في سبه بأقبح الكلام بغاية ما يكون من علو صوته"(١).

ومات النحاس وأراح واستراح بعد أن قاسى أهوالاً في مرضه(٢)، وهكذا "انهبط ومات مقهورًا منهورًا من آحاد المعاملين، واستمر ما أحكمه من السيئات في صحيفته بعد الممات"(٣). وصدق حكيم حين قال: "خمسة أشياء أشياء يهلك بها الإنسان نفسه: خديعة الأصدقاء، والالتفات عن العلماء، واحتقار الرجل لنفسه، وتكبر من لا يسوى، وإتباع الهوى"(٤).

ولله در القائل:

فعش ما شئت في الدنيا وأدرك

بها ما شئت من صيت وصوت

فحبل العيش موصول بقطْعٍ

وخيط العمر معقود بموت(٥).

---

(١) البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص١٠٠.

(٢) عنه انظر ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص٣٣٥، البقاعي: إظهار العصر، مج٣، ص٩٨: ٩٩.

(٣) السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص١٤٨، وجيز الكلام، مج٢، ص٧٣٤، رقم (١٦٨٩).

(٤) الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص١٠٧: ١٠٨.

(٥) السخاوي: الذيل التام، مج٢، ص٦٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر:

- القرآن الكريم.
- **ابـن إيـاس:** محمـد بـن أحمـد بـن إيـاس الحنفـي المصـري ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م.
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزءان، ج٢، القاهرة، ١٩٦٠.
- البقاعي: إبراهيم بن عمر البقاعي ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م.
  - إظهـار العصـر لأسـرار أهل العصـر (تـاريخ البقـاعي)، ثـلاث مجلـدات، تحقيق: محمد سالم بن شديد العوفي، الرياض، ط١، ١٩٩٣.
- **ابـن تغـري بـردي:** جمـال الـدين أبوالمحاسـن يوسـف بـن تغـري بـردي الأتابكي ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م.
  - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جزءان، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، القاهرة، ط١، ١٩٩٠.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزءان، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، د. ت.
  - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١٧ جزء، ج، ٦، ٩، ١١، ١٢، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦.
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، ج٦، ١٥، ١٦، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- **ابن حجر العسقلاني:** شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.
  - إنباء الغمر بأبناء العمر، ٩ أجزاء، تحقيق: عبدالله بن أحمد المديحج

العلوي، ج٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، ج٣، بيروت، ١٩٩٣.
- **ابن خلدون:** عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).
- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج١، مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن والحواشي: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠.
- **السبكي:** تاج الدين عبدالوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار، أبوزيد شلبي، محمد أبوالعيون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣.
- **السخاوي:** شمس الدين أبوالخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م).
- التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، د. ت.
- الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، تقديم: محمود الأرناؤوط، ٣ مجلدات، بيروت، مج٢، ط١، ١٩٩٧.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٤ مجلدات، مج٢، تحقيق: بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- **السيوطي:** جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، ج٢، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م.
- **ابن شاهين الظاهري:** زين الدين عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م).

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، باريس، ١٨٩٤.
- نيل الأمل في ذيل الدول، ٩ أجزاء، ق٥، ٦ من ج٢، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢.

– **الشوكاني**: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤).

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، القاهرة، د. ت.

– **ابن طولون**: شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م).

- نقد الطالب لزَغَل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، مراجعة: نزار أباظة، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

– **ابن العماد**: شهاب الدين أبوالفلاح عبدالحي أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٩٠م).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٩ مجلدات، مج٩، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، محمد الأرناؤوط، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

– **الغزالي**: أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١هـ).

- التبر المسبوك في نصيحة الملوك، فارس عربه أحد تلامذته، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

– **القلقشندي**: أبوالعباس أحمد القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، ج٣، ٤، ١١، ١٢، ١٤، القاهرة، ١٩١٤.

– **المقريزي**: تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي بن عبدالقادر العبيدي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٧ أجزاء، ج٤ تحقيق: سعيد عاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٣، ج٥، ٧، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. المعروف بـ "الخطط المقريزية"، ٤ أجزاء، ج٣، ٤، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.

- **ياقوت الحموي**: شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
- معجم البلدان، ٨ مجلدات، مج٤، بيروت، ١٩٥٧.

ثانياً: المراجـــع:

- **أحمد حسين:** موسوعة تاريخ مصر، ط٢، القاهرة، د. ت.
- **أحمد عبدالرازق أحمد:** البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، "دراسة عن الرشوة"، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٩.
- **البيـومي إسـماعيل:** الـنظم الماليـة فـي مصـر والشـام زمـن سـلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.
- **السيد الباز العريني:** المماليك، بيروت، ١٩٦٧.
- **السـير ولـيم مـوير:** دولـة المماليـك فـي مصـر، ترجمـة: محمـد عابـدين وسليم حسن، القاهرة، ط١، ١٩٩٥.
- **أنطون بشارة:** جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية، بيروت، ط٣، ١٩٩٧.
- **حيـاة نـاصر الحجـي:** السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، الكويت، ط١، ١٩٩٧.
- **الزركلـي:** خير الدين الزركلي. الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٨ أجزاء، ج٢، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢.
- **سـعيد عبـدالفتاح عاشـور:** العصـر الممـاليكي فـي مصـر والشـام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦.

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢.

- الأيوبيـون والمماليـك فـي مصـر والشـام، دار النهضـة العربيـة، القاهرة،١٩٩٦.

- **عبدالمنعم ماجد:** نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩.
- **محمد سهيل طقوش:** تاريخ المماليك في مصر والشام (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **محمد قنديل البقلي:** مصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.
- **محمود رزق سليم:** عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ٤ مجلدات، مج١، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢.
- **مفيد الزيدي:** العصر المملوكي، الأردن، ٢٠٠٩.

ثالثاً: الدوريـــات:

- **أحمد عبدالرازق أحمد:** العمارة والفنون في عصر سلاطين المماليك، بحث ضمن المرجع في تاريخ مصر في العصور الوسطى، تقديم ومراجعة: زبيدة محمد عطا، حسنين ربيع، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٣.
- **ليلى عبدالجواد إسماعيل:** مظاهر الحضارة في العصر المملوكي، بحث ضمن المرجع في تاريخ مصر في العصور الوسطى، تقديم ومراجعة: زبيدة محمد عطا، حسنين ربيع، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٣.